

عبد الله كنون

أنجم السيرة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر مؤلفة ومُحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بقال الأبد منه لتوضيح مكانتها



دار الثقافة

للتنشيط والترويج

للأدب والعلوم

أنجم التيسر وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي التادر مؤلفة ومحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بقاليد مبدئ لتوضيح معانيها

عبد الحكيم

أنجم السباسة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومُحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
يُمَّا لابد منه لتوضيح معانيها



دار الثقافة

للنشر والتوزيع

34-32 شارع فيكتور ميكر — م.ب. 4038

الهاتف 30.23.75 - 30.76.44

157 شارع لاجروند — الهاتف 24.79.32

تليكس 22682 — الدار البيضاء

الطبعة الأولى 1410 هـ / 1989 م
جميع حقوق الطبع محفوظة
الایداع القانوني رقم 1989/604

مقدمة

كان من رأيي دائما أن الذين أرخوا للأدب العربي، فوقفوا به عند مشارف القرن الخامس، قد ظلموا هذا الأدب وأوجدوا فيه فجوة كبيرة تمتد من نهاية القرن الرابع إلى بداية القرن الرابع عشر حين انبلاج فجر النهضة الحديثة، أي مدى تسعة قرون كاملة، يحكمون عليها بالعقم الأدبي، وضحالة الفكر، ويعدونها عصور انحطاط وتراجع، خاصة في ميداني الشعر والنثر، والشعر بالأخص.

ولعل مرجع ذلك إلى الكاتب الأول الذي خطط لتاريخ الأدب، فرأى أن عهد ازدهاره وغلبته على ماسواه من الآداب المنتسبة إلى الأقوام غير العربية، المتعايشة في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، هو العهد العباسي الأول، فتبعه كل الذين كتبوا في الموضوع، كما يحصل غالبا في مثل هذه الأعمال، لاسيما والتاريخ للأدب العربي، وتقسيمه إلى عصور، فن مُحدث إنما ظهر أولا في البرامج الدراسية الجديدة بحكم سد الحاجة إليه، مقابل ما هو موجود فيها من مادة تاريخ الآداب الأجنبية.

والأمر إن يكن أخذ بعامل السرعة وسوء التقدير، فقد آن الأوان لمراجعة الموقف وتصحيح الغلط، ووضع مسطرة سليمة لتقويم إنتاجنا الأدبي في العصور المحكوم عليه بالتخلف، بعد إجراء مسح دقيق لهذا الانتاج في كتب التراث من مجموعات أدبية ودواوين شعرية وغيرها، التي ماتزال مخطوطة، والتي طبعت في السنوات المتعاقبة بعد ظهور جل المؤلفات المتداولة في تاريخ الأدب العربي.

ولعل مثال المغرب العربي أعظم دليل على خطأ الفكرة التي بنيت عليها تواريخ أدبنا، فإنه كان يهمل فيها اهمالا كلياً، وإذا ذكر تسامحا، فأكثر ما يُذكر ابن رشيق وكتابه العمدة، وابن خلدون ومقدمته، إلى أن ظهرت كتبنا في تاريخ الأدب المغربي، فصارت بعض كتب الأدب العربي الجديدة تلم بشيء من تاريخ المغرب وأدبه وشخصياته، وهكذا يتبين للملاحظ الاجحاف الكبير الذي وقع للأدب العربي، من جانب المخططين لتاريخه والمؤلفين فيه.

نعم إن العهد العباسي الأول كان قمة النهضة الفكرية العربية، وعصر التفتح على فنون العلم والأدب والمعرفة، وقد استقطب جميع العناصر والقوميات المتساكنة في الرقعة الفسيحة التي كانت تخضع لدولته، فأغنتها لغته وأدبه عن لغاتها وآدابها المتنوعة، وكانت أيامه زينة للذهر، وفترة زاهرة في تاريخ الانسانية، قلما

عرف العالم لها نظيرا. وكل ما قيل فيه لا يوفيه حقه من التنويه والتقدير، وأما الأدب العربي في هذه الفترة، فإنه فاق أدب الأمم السابقة واللاحقة، قبل عصر النهضة الحديثة في الغرب، والذين ينالون منه ويزرون به من الباحثين الأجانب ومن لف لفهم، فإنما يبعثهم على ذلك كراهية للعرب وحقد على دولتهم، وشعوبية جديدة خلفت الشعوبية التي عرفها العرب في أوطانهم من بعض العناصر الموتورة والقوميات المنسحقة التي لم يبق لها وجود مع البعث العربي العظيم.

ولقد استقلت فارس بعد ذلك، وأحيت لغتها وأدبها، بالاستمداد من اللغة العربية وأدبها، فاستحقت تنويه أولئك الباحثين واكبارهم من حيث يعيرون الأدب العربي وينالون منه، وما ذلك إلا تعصبا على العرب واستخفافا بأمرهم والا فأين يجيء الأدب الفارسي من الأدب العربي الغني الواسع المليء؟ وقد نقلت إلى العربية أخيرا بعض كنوزه التي طالما نوه بها المستشرقون وعدوها من الروائع العالمية، مثل كتاب كلستان لسعدي، فهل يقاس ولو بكتاب المستظرف للابشيهي الذي ربما يوضع في آخر قائمة كتب الأدب العربي؟

ولست أشنع أو أطعن في الأدب الفارسي، وهو أدب إسلامي كبير، وإنما أريد أن أؤكد أن التقليل من شأن الأدب العربي والتشكيك في قيمته، حتى في أزهى عصوره، خطة مرسومة للترهيد فيه، وصرف أبناءه عنه، فما بالك بالعصور التي تلتها، لأننا وإن قلنا بأن العصر العباسي الأول، هو العصر الذهبي لأدبنا، فليس

معنى ذلك أن العصور الأخرى لابد أن تكون عصور انحطاط لهذا الأدب وتراجع مستديم، وأن ننظر إليه بهذه العين وندرسه على هذا الأساس، كما أراد الموجهون والمخططون الأول، سواء كانوا منا أو من غيرنا، وسواء كان عملهم هذا صادرا عن قصد سيء أو تقدير خاطيء.

ومجال الكلام في هذا الباب واسع جدا، ولم نعقد هذا البحث لتقصيه ولا للالمام به ولو في الجملة، ولكنها خطرة فكر، كان لابد منها تمهيدا للموضوع الذي نحن بصددده، وهو مما يمت إلى هذه القضية بسبيل، بل انه أحد الأمثلة الناطقة بصدقها فيما يقدمه من نماذج شعرية بديعة، أهملها تاريخ الأدب العربي، وفاتت الراصدين المدونين لفوائده ودرره.

إنها قصائد رائعة من الطراز الممتاز شكلا ومضمونا، لفظا ومعنى، فمن حيث الأداء توفرت فيها جميع شروط البلاغة مع العبارة الفصيحة والتصوير البارع، ومن حيث المحتوى اشتملت على أغراض أبحاث قلما تناولها الشعر العربي قديمه وجديده، على أن بعضها وان تواطأت مع المروي من الأشعار في موضوعاته المعهودة، فقد كان المامها به في أسلوب مشبع بالحياة والتجديد.

وناهيك أن من هذه القصائد، ما يحمل اسما علما تتعارف به لدى الأدباء، ويميزها عن غيرها من مختلف المنظومات والأشعار، كهذه التي تسمى أنجم السياسة، والتي عنونا بها هذا البحث.

قصيدة أنجر السياسة

هي قصيدة فريدة في موضوعها، لانعرف لها نظيرا فيما تناولته من مادة السياسة وتديرير الملك بأسلوب شعري جميل، فإنما عهدنا أن يتطرق شعراؤنا لهذا الموضوع في البيت والبيتين، أو المقطوعة الصغيرة تحتوي خاطرة من خواطر السياسة أو جزئية من جزئيات قواعد تديرير الملك كقول ابن زريق في عينته المشهورة :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
وكل من لايسوس الملك ينزعه

وقول أبي الفتح البستي :

إذا غدا ملك باللهو مشغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة
لماغدا وهو برج اللهو واللعب

وقول الافوه الاودي من قصيدة :

فينا معاشر لم بينوا لقومهم
وان بنى قومهم ماأفسدوا عادوا

لا يرشدون ولن يرعوا لمرشدهم
فالغى منهم معا والجهل ميعاد
لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يُتتى إلا بأعمدة
ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أسباب وأعمدة
به فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وقد يتعرض الشعراء لمعاني من هذا الباب في قصائد المدح، حين
يعدون مناقب ممدوحهم من ملوك ورؤساء، فيأتون على أشياء
وأوصاف مما يستحسن من سياستهم وتديبرهم كما في قول المتنبي
يمدح سيف الدولة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ماعند نفسه
وذلك مالا تدعيه الضراغم

وقوله فيه عند ايقاعه بيني كلاب.

ترفق أيها المولى عليهم
فإن الرفق بالجلاني عتاب
وما جهلت أياديك البوادي
ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
فحل بغير جارمه العقاب

أما أن تتمحض القصيدة كلها لهذا الغرض، وهي من الطوال الجياد، فتبدى فيه وتعيد، ويتفنن صاحبها في أساليب القول، من الخطاب إلى الغيبة، ومن المدح إلى النصيح، ومن ضرب المثل إلى إبراز المعقول في صورة المحسوس، مع الامام بمجمل قواعد تدبير الملك وأصول السياسة، وتعليلها وبيان حكمتها، والمحافظة على وحدة الموضوع بحيث لا يتخرج عنه ولا تتخبط فيه، بل تسير على النهج اللائق. والتخطيط الواضح، فانا لانجد ذلك إلا في قصيدة أنجم السياسة هذه، التي نقدمها لدارس الأدب العربي ومؤرخيه، وننفض عنه غبار الإهمال والنسيان. ونشرها كاملة غير مقطعة، منسوبة محقة، لا كما نشرت من قبل ضمن إحدى المقامات الأدبية، من دون تنويه بها ولاتنبية على صاحبها كما يتبين مما يأتي.

من هو صاحبها ؟

الحسن والاحسان قد يكونان مصيبة على صاحبهما، ولذلك وقع لهذه القصيدة ما وقع لقصيدة الشهاب الاعزازي التي ادعاها فيما قبل سبعون شاعرا، وهي النونية التي أولها :

صاح في العاشقين بالكنانة
رشاً في الجفون منه كنانة

وقصيدة أنجم السياسة لم يدعها أحد ممن نسبت إليه، فيما نظن، ولكن الناس نسبوها، حسب ما اطلعنا عليه، إلى ثلاثة أشخاص من أهل العلم والأدب.

(أولهم) صاحبها الحقيقي وهو الوزير أبو محمد ابن المالقي (وثانيهم) لسان الدين ابن الخطيب الشهير.
(وثالثهم) الرئيس أبو القاسم بن رضوان النجاري.

فأما لسان الدين فقد نسبها إليه شارحها محمد بن عبد الله الدمناتي بإشارة من ابن عمه الفقيه القاضي الأعدل أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي القاضوي الذي ندبه إلى شرحها نجل السلاطين الكرام، سليل سيد الأنام، مولانا أبو عبد الله هشام، كما ورد في طالعة الشرح وصفا للثنتين.

ولاشك أن هذا الأمير هو ابن السلطان مولاي سليمان العلوي،
فالشارح إذن متأخر، من أهل القرن الثالث عشر.

ويقع هذا الشرح في كراسة ونصف، لأن القاضي المنتدب
له، الذي وكل المهمة إلى ابن عمه المذكور، أشار عليه بأن
يقتصر على بيان معنى البيت واعرابه من غير استطراد لما يناسبه
من آية أو حديث أو خبر أو غير ذلك. ولعلها إشارة الأمير هشام
نفسه الذي كان يهيمه فهم ألفاظها وتصور معانيها فقط، ولذلك
قال هذا الشارح. «ولم أستطلع لها ديوانا من دواوين العرب،
ولانشرت لأجلها مصنفا من مصنقات الأدب» إلخ وسمى شرحه
بالمواهب الربانية في شرح قصيدة السياسة السلطانية.

ويظهر أنه لم يكن يعرف أن اسمها أنجم السياسة والا لكان
سمى شرحه بما يوافق هذا الاسم.

كما أنه بدأ بالشرح من البيت الخامس عشر، وترك الأبيات
الأربعة عشر التي تتضمن مدح الملك المخاطب بها، فاما أنه
طرحها لعدم اهتمامه بمضمونها، واما انه لم يطلع على هذه
الأبيات لأنها تحذف من بعض نسخ القصيدة. وبالجمله فهو شرح
مختصر جدا، لايزيد على تفسير الألفاظ اللغوية وتوضيح معاني
الأبيات بعبارات مفهومة، وهو وان كان له خطبة ومقدمة، فقد
انتهى بغير خاتمة، وكذلك لا يعرف تاريخ كتابته لا تأليفا ولا
نسخا، وخطه مغربي جميل، وأبيات القصيدة المشروحة فيه

مكتوبة بمداد أحمر، وهي في بعض أوراقه لم تكتب، فبقى مكانها أبيض، والمهم أنه نسب القصيدة للفيق الأديب البارع الأريب الكيس اللبيب سيدي محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب، على حد تعبيرة، وهذا هو الاسم الكامل للسان الدين ابن الخطيب.

والشرح الموصوف يوجد ضمن مجموع خطي لصديقنا الأستاذ البحاث السيد محمد المنوني، وقد أعارني إياه لما علم باهتمامي بهذه القصيدة، فله الشكر الجزيل.

ونلاحظ (أولا) أن هذه القصيدة لا توجد في ديوان لسان الدين المسمى بالصيب والجهم والماضي والكهام الذي جمعه بنفسه وأودعه مختار شعره. وهو أو ما يوجد منه على الأصح ما يزال مخطوطا، ولكن هذه القصيدة ليست من محتوياته.

(وثانيا) إن الذين ترجموا لابن الخطيب وعنوا بذكر آثاره المنشورة والمنظومة، قديما وحديثا لم يثيروا إليها إطلاقا، وأكفاهم وأوسعهم إحاطة بهذا الغرض العلامة المقرئ صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب فإنه استوعب الكلام على التعريف بلسان الدين والتنويه بإنتاجه الرفيع نظما ونثرا في مختلف المواضيع ولم يعرج على هذه القصيدة ولم يرد لها ذكر في كتابه الضخم، وهي ليست مما يهمل أو ينسى لو كانت له، وكان هو صاحبها فقد ذكر من غرر قصائده ومقطعاته

وأبياته الكثير الطيب، مشيدا بها غير قاض العجب من ملكة ابن الخطيب وشاعريته، فهل من المعقول أن يتغافل عنها، وهي القصيدة العصماء، والدرة الفريدة ان وقعت له وثبت عنده أنها من نظم ابن الخطيب ؟..

(وثالثا) اننا عند تحليل هذه القصيدة والنظر في أسلوبها، نجد أن نفسها يختلف عن نفس ابن الخطيب ونظمها غير نظمه، فقد امتازت بالسلاسة والوضوح، ونزعت منزع العلماء في ترتيب الأفكار وتفصيل الألفاظ على قد المعاني مع الاستشهاد ببعض الحقائق العلمية عند الاقتضاء، في حين أن أسلوب ابن الخطيب الشعري يميل إلى الجزالة والقوة وينهج نهج الشعراء في التخيل والتمثيل، وهو على العموم يحتاج إلى تأمل وبعد نظر في إدراك معانيه والامام بمغازيه، والقصيدة المعنية ليست كذلك.

ولم ينفرد الدمناتي بنسبة قصيدة أنجم السياسة إلى ابن الخطيب، فقد أخبرني المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه وقف على مقامة سياسية منسوبة إلى ابن الخطيب في المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع خطي، وأنه اشتبه فيها لأنها لاتوجد بين تراث ابن الخطيب الذي نسبه إليه مترجموه، ومن وصفه الذي وصفها به، رجحت أنها المقامة المسماة بحضرة الارتياح المغنية عن الراح للقاضي ابن أبي حاتم العاملي المتوفى سنة 815. وأخبرته أنها مطبوعة بتونس سنة 1331، ووجهتها له ليقارن بينها وبين المخطوطة المشار إليها، فإذا هي هي كما أجباني بذلك بعد اطلاعه عليها

والمقصود من هذا أن قصيدة أنجم السياسة ذكر في آخر هذه المقامة، على أنها ماأنشده بطلها للملك الذي أنشئت المقامة له، مقتصرًا على أربعة عشر بيتًا من أولها، وهي التي يخاطب فيها صاحب القصيدة الحقيقي الملك الذي قدمت له. وبعد محاورة نثرية بين بطل المقامة وملكها، توبع إنشاد القصيدة إلى النهاية.

فمن ورود هذه القصيدة في مقامة حضرة الارتياح، مع نسبة هذه المقامة في بعض النسخ إلى ابن الخطيب، توهم من توهم أنها له، كشارحها الدمناتي، لاسيما وهو يتدثها بالبيت الخامس عشر الذي استونف إنشادها منه في المقامة من غير تفتن إلى أولها الذي اقتطع في ابتداء الانشاد منها. وهكذا تُدوِّرت عند بعضهم، وتحت يدنا نسخة منها مستقلة، غير نسخة الشرح. إنما تبدأ بالبيت الخامس عشر «لا يقال أنها لذلك تكون من نظم صاحب المقامة القاضي ابن أبي حاتم، لأننا نقول عليه :

(أولاً) ان أحدا ممن نقلها أو شرحها لم ينسبها إليه، وأكثر مانسبها الناقلون لصاحبها الحقيقي أبي محمد عبد الله ابن المالقي، ونسبت لابن الخطيب في بعض النسخ، وفي شرح الدمناتي كما مر آنفاً، ونسبت لأبي القاسم بن رضوان في شرح مجهول المؤلف كما سنبيه قريباً. وأما ابن أبي حاتم صاحب المقامة، وان نقلت عنه فيما نظن، فليس هنا من نسبها إليه، وبيدنا ست نسخ لها غير النسختين المنسوبة إحداهما لابن الخطيب عند شارحها الدمناتي، والأخرى

لابن رضوان عند شارحها المجهول، وليس في واحدة منها ذكر لابن أبي حاتم أو نسبة إليه مما يدل على أن من نقلها عنه، عرف أنه إنما أنشدتها انشادا ولم يكن هو الذي نظمها.

(ثانيا) ان أوصاف الملك الذي أنشأ له ابن أبي حاتم مقامته، ثباين كل المبينة أوصاف الملك الذي نظمت له القصيدة، فذاك عربي بين أعجام، نشأ نشأة متصاوية مستهترة، ولما أفاق من سكرة شبابه، اتمس من يأنس به من أبناء بلده، فحضر لديه وفد من العرب، هو الذي أنشئت المقامة على لسان أفراد. والملك المخاطب بالقصيدة على خلاف هذا كله، كما يفهم من الأبيات الأربعة عشرة الأولى التي قيلت في خطابه. فواضح إذن أن صاحبنا القاضي ابن أبي حاتم إنما أنشد هذه القصيدة في ختام مقامته ولم ينظمها.

أضف إلى ذلك أن المقامة كلها كتبت بطريقة الالتزام، نثرها وشعرها، فقد كان أفراد الوفد العربي الذي حضر لدى الملك المذكور على عدد حروف المعجم، وكان كل فرد منه يخاطبه بنبذة من النثر المسجوع يذكر فيها اسمه ونسبه واسم جاريته، مع ضرب مثل في شؤون السياسة وتدير الملك، ملتزما في ذلك كله الابتداء بالحرف الأول من اسمه، ثم ينشد قطعة من الشعر في التغزل بجاريته، لاتتجاوز أربعة أبيات، ولكنها تلتزم نفس الحرف في أول كل بيت وآخره.. وهكذا جاءت المقامة مثقلة بالصنعة البديعية من أولها إلى آخرها، وليس فيها مما عرى عن هذه الصنعة إلا القصيدة التي نحن

بصددتها، وقطعة شعرية في أول المقامة هي ولاشك من نظم صاحبها، وبيتان في آخرها معروفان اقترح على المؤلف تخميسها الخ. وهذا مما يدل على أن كاتب المقامة حين أورد القصيدة إنما كان منشدا لا ناظما لمخالفتها لطريقته، وعدم شبهها بصنعبته.

وإلى هذا فقد نسبت القصيدة إلى شخص ثالث هو الرئيس أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي صاحب القلم الأعلى في دولة بني مرين⁽¹⁾ على ما ألعنا إليه سابقا. والذي نسبها إليه صاحب شرح مجهول، على هذه القصيدة، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك 932) ولكن الموجود منه إنما هو شرح البيت الأول.

ومن العجيب أنه ذكر استقضاءه بجبل طارق وامتحانه بالسجن في فاس، مدة طويلة، قال : كما لمح لذلك بقوله في القصيدة : تفقد السجن... البيتين. وفي السجن الف — كما يقول هذا الشارح — تأليفه في الاعتقال، وذكر فيه مقامات أنشأها وهو بالسجن، ومن جملة مقامات حضرة الارتياح المغنية عن الراح، وجعلها مقصدين ! مدح السلطان وبسط الكلام على سياسة مملكته.

وفي مقدمة هذا الشرح كلام نفيس في مدح العلم والمعرفة وذكر السياسة وأصولها، جاء في أثنائه قوله : ومن أجل لمعها البارقية،

(1) تنظر ترجمته في جذوة الاقتباس، ونيل الابتهاج والتعريف بابن خلدون وغيرها.

السياسة المالفية، فلقد أبدع فيها صاحبها ماشاء، وميز في فوائدها بين الخير والانشاء، إلا أنها لازالت عروسا في خدرها، بخاتم ربها من ألى عذرها. إلخ.

ويظهر أن هذا الشارح اشتبه عليه أمر رئيس الكتاب ابن رضوان بالقاضي ابن أبي حاتم. فالمعروف أن هذا الأخير هو الذي استقضى بجبل طارق، وامتنح بالسجن في فاس، على حسب ماجاء في التعريف به على ظهر نسخة المقامة المطبوعة باهتمام العلامة الأديب السيد محمد بن قاسم البادسي الأنصاري الأندلسي الفاسي... والا فإن صاحبنا ابن رضوان لم يذكر في ترجمته أنه ولي القضاء أصلا بجبل طارق ولا بغيره⁽¹⁾، ولا ذكر أنه امتحن بالسجن في فاس ولا في غيرها فلعل الاشتباه الذي وقع له في ترجمته، هو الذي جعله ينسب القصيدة إليه بحكم أنها واردة في المقامة التي هي من تأليف القاضي ابن أبي حاتم، قاضي جبل طارق الممتحن بالسجن في فاس على ماذكرناه خصوصا مع نسبة ابن رضوان إلى مالفة والقصيدة كذلك منسوبة إليها.

وحيث تبين الخطأ في ترجمة ابن رضوان، فإن الخطأ في نسبة هذه القصيدة إليه أبين، من حيث أن أحدا لم ينسبها إليه ومن حيث شهرة نسبتها إلى غيره، وهو مانزیده توضيحا فيما يلي :

(1) نعم استنيب في القضاء بفاس مدة كما عند ابن الآبار في مستودع العلامة ولكن النيابة غير الولاية.

فبعد استبعاد نسبتها إلى كل من ابن الخطيب وابن رضوان، بقي معنا ابن المالقي، وهو صاحبها الحقيقي في نظرنا.

(أولا) لأن بيدنا ست نسخ خطية غير نسختي الشرحين المذكورين، أربع منها تنسبها له، وواحدة تنسبها لابن الخطيب وهي تبدأ من البيت الرابع عشر، وقد أشرنا إلى الشبهة في ذلك، عند ملاحظتنا على نسبتها لابن الخطيب. والنسخة السادسة غفل عن النسبة... فأكثر النسخ إذن على أنها لابن المالقي.

نعم في نسختين من النسخ الأربع جاءت النسبة هكذا : للقاضي أبي عبد الله المالقي، وفي النسختين الباقيتين لأبي عبد الله المالقي بدون وصف القاضي.

وصاحبنا ابن المالقي لم يل القضاء كما سيتبين من ترجمته الآتية، هو أبو محمد عبد الله، لا أبو عبد الله، ولا يبعد أن يكون وقع في اسمه تحريف أو تخفيف، فصار أبو محمد أبا عبد الله، لاسيما وهذه النسخ كلها لم تذكر من أين نقلتها ولا من نقلها حتى نعتمد نقلها في شيء من ذلك. غاية الأمر أنها كلها تنسبها لمن ذكر. فأما وصف القاضي في بعضها فلعله أتى من عدم التمييز بينه وبين بلديه ومُعاصيره وسميه عبد الله بن عبد الرحمان المالقي الذي ولى القضاء لعبد المومن الموحي وولده يوسف... هذا ان لم يكن هو نفسه ولى القضاء ولم نطلع على ذلك.

(ثانيا) ان وصفها بالسياسة المالقية كما مر في الشرح المجهول

المؤلف، وتسميتها بأنجم السياسة، مما يرجح أنها لشخصية سياسية من أهل مالقة، لاعلمية أو قضائية فقط، وليس عندنا ممن لعب دورا سياسيا هاما بصفته وزيرا وأكثر من وزير في دول المغرب، وهو مالقي إلا صاحبنا أبو محمد ابن المالقي الذي نعتقد أن هذه القصيدة له، فقد كان بالوصف الذي ذكرناه في دولة الموحدين أيام عبد المومن وولده يوسف. والمكانة التي كان يحظى بها لدى هذا الأخير تخوله أن يقول هذه القصيدة ويخاطب بها مخدمه الذي كان من أهل العلم والحكمة والسياسة، وكان من خاصة العلماء والأدباء والمثقفين.

(ثالثا) قال المراكشي في المعجب، وهو يتكلم على يوسف بن عبد المومن : «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك من المغرب قبله⁽¹⁾، وهذا مايشير له البيت التاسع من القصيدة في خطاب ملك قدّمت له فيما نعتقده، وهو يوسف بن عبد المومن. لأن في أيامه برزت شخصية ابن المالقي :

جمعتنا من تفاريق البلاد فلم
يفت لنا أمل الا جمعناه

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص. 145 طبعة المغرب.

(رابعاً) جاء في ختام القصيدة لمحة وعظمية مؤثرة تضمنت هذا البيت :

للأشعرية فينا مذهب عجب
ومن سعادتنا أنا اعتقدناه

ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة إلى ظهور مذهب الامام أبي الحسن الأشعري وانتشاره في المغرب على يد المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية. وتقبل الناس له ولا سيما بطانة الخلفاء الموحدين ورجال دولتهم القائمين بدعوتهم وقد كان ابن الملقى من صدورهم وأعيانهم ناهيك أنه كان يلى لهم مشيخة الطلبة، وهو منصب خطير يوازي منصب وزير الدعاية وزير التربية في الدول ذات السياسة الموجّهة والمذهب الخاص، فليس من الأمور العفوية إذن، ذكر المذهب الأشعري في القصيدة والنص على أن اعتناقهم إياه من سعادتهم، فإن في ذلك تلميحاً لما كان عليه المغرب من اتباع مذهب السلف قبل قيام دولة الموحدين، وما جاء به ابن تومرت من مخالفة لذلك حتى انه كان يسمى المرابطين بالمجسمين، وسمى أتباعه بالموحدين لأخذهم بمذهب الأشعرية المؤولين للمتشابه والنصوص الموهمة للتشبيه.

إن هذه الالتفاتة للمذهب والأشادة به، مما يحل من صاحب الأمر محل الرضى والاستحسان. وقد كان ابن الملقى يعرف ذلك ويشعر به تمام الشعور، بل ربما أوحى به لغيره. يدلنا على ذلك في

الجملة ما جاء في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة، وقد أنشد قصيدة للشاعر أبي محمد بن حربون في تهئة يوسف بن عبد المومن بوقعة على المخالفين بالمغرب، فلما أنهاها قال : «قال الفقيه الخطيب أو محمد المالقي رحمه الله : استحسّن الأمر — أدامه الله — لأبي محمد هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القُصّاد، وتقرب للأمر العزيز — أدامه الله — بأغراضه النبيلة فعلا ذكره وشاد...»⁽¹⁾ ولم يكن الغرض المذكور سوى أن يتبدىء الشعراء قصيدتهم بالحمد لله على طريق الكتابة، فكيف بمن يتعرض لمذهب الدولة الاعتقادي وينوه به ويذكر أن اعتقاده من السعادة ؟

(خامسا) ترجمة ابن المالقي التي تُظهر مؤهلاته الأدبية وقربه من الخليفين عبد المومن ويوسف وتقديمهما له ومهمته في البلاط الموحيدي، هي مما يؤكد أنه المراد عند نسبة قصيدة أنجم السياسة لابن المالقي أو أبي عبد الله المالقي على ما قدمنا من تخفيف اسمه أو تحريفه... وهاهي ذي باختصار كما وردت في التكملة لابن الأبار⁽²⁾.

«عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري يعرف بابن المالقي أصله منها وسكن مراکش، يكنى أبا محمد، أخذ في صغره عن أبي الحكم

(1) المن بالامامة، الجزء الثاني ص 367

(2) ج 2 ص 486 طبعة مدريد

بن بُرجان، واختلف إليه بقريته من نظر طليطلة من شرف اشبيلية، ولازمه وبرع في علمه، وكان فقيها نظارا خطيبا مفوها، ذا حظ من الأدب وافر، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة، ورأس طلبة حضرته مراكش، وتوفي بها سنة 574. عن ابن عمر. وقال ابن صاحب الصلاة : توفي سنة ثلاث وسبعين وأثنى عليه كثيرا.

وجاءت في البيان المغرب لابن عذارى بصورة أكثر تركيزا على وظيفته الرسمية مع وصفه بالمالقي بدون ابن وهذا نصها (وفيها — يعني سنة 574 — توفي أبو علي بن عزّون والقاضي أبو القاسم بن فضيل، وأبو عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش، وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المومن في حظوة مكينة، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفع له المسائل، ويتناول توصيل الوسائل، ويرفع أشعار الشعراء، وإخراج الجزاء، وتقدم للخطابة والصلاة بأمر المومنين، وإذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه إلى غير ذلك وكان له أدب غرض وشعر في الزهد ومكفرات (الذنوب) ولم يزل في عز وتمكين إلى أن توفي رحمه الله⁽¹⁾).

ومن الجدير بالذكر أن مشيخة الطلبة هذه، مما أحدثه عبد المومن، وهي مؤسسة تضم أهل العلم والحديث الذين هم ركائز الدولة، وبلغت من عناية خلفائه بها وبرجالها ما أثار عليها حسد

(1) البيان المغرب ج 4 ص 112

وجوه الموحدين وزعماء قبائلهم⁽¹⁾، فلا جرم أن يكون لرئيسها هذه المنزلة الكبيرة في الدولة.

ومن شاء فليتبّع نشاط رئيسه في البلاط الموحدى، وما كان له فيه من الحركة الدائبة أيام الخليفتين عبد المومن ويوسف، في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة. ويهمنّا أن ننقل منه هذه الفقرة خاصة، وهي المتعلقة بمحوادث سنة 560، وهي التي تقول⁽²⁾ ! «وفيها. اختص الأمير الأجل الأعدل بوزارته أبا العلاء إدريس بن جامع وقربه وأحبه وماشى معه الفقيه أبا محمد المالمقى في المسائل» فهي تدل على أنه كان مستوزرا أو نائب الوزير الأول.

وعلى كل حال فهذه هي ترجمة صاحبنا ابن المالمقى ومؤهلاته التي تجعل منه رجلا كفؤا جديرا بأن تنسب إليه قصيدة أنجم السياسة، ويكون هو ناظمها وناسج بردها، لا ينازعه في ذلك أحد ممن نُحلت له وحُملت عليه، إلا أن يظهر ما يخالف ذلك من نقل صحيح وعزو ثابت وتوثيق راجح.

(1) انظر المعجب ص 172

(2) المن بالامامة ج 2 ص 285

نسخها واسمها

ماوقفت عليه من نسخ هذه القصيدة ثمان :

(1) نسخة مكتبنا الكونية، وهي واقعة ضمن مخطوط يشتمل على عدة مؤلفات، وخطها مغربي واضح ومشكول شكلا صحيحا وتحمل هذا العنوان بعد الحمد لله : «هذه القصيدة تسمى أنجم السياسة للعلامة الأجل أبي عبد الله المالقي رحمه الله». وتقع في خمس صفحات، ويمكن أن تكون كتبت في القرن الماضي.

(2) نسخة منفردة مجلدة على حدة، من محتويات الخزانة العامة بالرباط. وهي مكتوبة بخط جميل داخل جداول ملونة وفي أولها بعد البسملة والصلاة (ترجمة) كما يعبر النساخون عندنا أي زخرفة مكتوب داخلها (أنجم السياسة للقاضي أبي عبد الله المالقي) وتمتاز هذه النسخة بطرر وتعاليق مفيدة جدا، ويمكن أن يستخرج منها شرح للقصيدة، ويظهر أنها مما كتب في أوائل هذا القرن، فهي حديثة جدا، وتقع في إحدى عشرة صفحة لأن بين أبياتها بياضاً كبيراً خصص لكتابة ماخف من الشروح.

(3) نسخة تحمل عنوان أنجم السياسة للقاضي ابن أبي عبد

الله المالقي مكتوبة بخط مغربي جميل، وتقع في سبع صفحات وهي حديثة كذلك، من محتويات الخزانة العامة أيضا.

(4) نسخة أخرى كتب بهامشها مانصه : «وهذه القصيدة لعلها لأبي عبد الله المالقي تسمى بأنجم السياسة» وخطها لابأس به، وتقع في أربع صفحات، وربما كانت مما نسخ في القرن الماضي، وهي كذلك من محتويات الخزانة المذكورة.

(5) نسخة لاتحمل عنوانا ولانسبة، وخطها مغربي جميل، تقع في خمس صفحات، وربما رجعت إلى القرن الماضي، وهي للخزانة العامة أيضا.

(6) نسخة تلوح عليها أمانة القِدم، ولكنها لا تتجاوز القرن الماضي، خطها لابأس به. وتبتدىء من البيت الخامس عشر، وتقع في أربع صفحات، وبآخرها هذه الجملة : «انتهت القصيدة العجيبة، في نصيحة المقام السلطاني للامام العلامة الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب السلماني رحمه الله تعالى وجدد عليه رحمته بمنه ويمنه، وحوله وطوله» وهي بالخزانة العامة كذلك.

(7 و 8) نسخة شرح الدمناتي، ونسخة مقامة حضرة الارتياح وهذه مطبوعة، وسبق الكلام عليهما.

ولعل القارئ قد لاحظ أن بعض هذه النسخ فيها تسمية القصيدة بأنجم السياسة وبعضها خال من التسمية، كما أن الشرح المجهول الذي قدمنا الكلام عليه سماها السياسة المالقية، ونشير هنا

إلى أن اسم أنجم السياسة مأخوذ ولاشك من البيت الذي يقول
فيه ناظمها :

هاذي (السياسة) لاحت بعض (أنجمها)

ماكل نجم رصدناه قصدناه

وبعد فهذا هو النص الكامل لقصيدة أنجم السياسة، مصححا
مقابلا على جميع النسخ المذكورة، ومعلقا على بعض أبياته بما يبين
المعنى، ويعرب عن المقصود، حين يكون التعليق لا بد منه :

(1) يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَاهِي حِيَاهُ
أَنْتَ الَّذِي تَأَلَّفُ الْأَطْعَانُ مَغْنَاهُ

(2) أَمَا مَقَامُكَ فَهُوَ الْغَوْثُ إِنْ قَصِدْتَ
دَارَا أَمْرِيءَ بِحُرُوبِ الضِّيمِ دُنْيَاهُ

(3) وَجُودُكَ كَفَكَ جَوْدًا⁽¹⁾ فِيهِ غُنْيَةٌ مِنْ
قَدْ أَجْدَبْتَ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ يُمْنَاهُ

(4) بِحَسْبِكَ⁽²⁾ النَّصْرُ مِنَ الْإِلاكِ أَصْبَحَ قَدْ
وَالَاهُ حَبًّا، وَمِنْ عَادَاكَ عَادَاهُ

(5) وَمَا عَسَى تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ فِي مَلِكٍ
الْجُدُّ مَلِكُهُ وَالْجُدُّ وَالْإِلَاهُ⁽³⁾

(1) وجود الأولى بالضم الكرم، والثانية بالفتح : المطر.

(2) في جميع النسخ فحسبك بالفاء وفي طرّة احداها بحسبك بالباء نسخة هي أنسب

(3) في جميع النسخ ولا له بالشرير وما اخترناه هو ما في النسخة السادسة

- (6) اليَمِّ راحته والحلم راحته⁽¹⁾
والأمن ساحته واليمن لقياه
(7) والمجد منصبه والحمد مكسبه
والسعد يصحبه والوفد يغشاه
(8) لو الأقاليم عمّ الجورُ سبغتها
واستنجدته لجلاؤه وأجلاله
(9) جمعنا من تفاريق البلاد فلم
يُفِت لنا أمل إلا جمعناه
(10) وخلف كل فتى منا فراعُ قطا
ما حظهم منك إلا ما جلبناه
(11) ثغر ملكت بسيف العدل أقربه
هلاً ملكت⁽²⁾ بسبب الفضل أقصاه
(12) إن الملوك على ماغاب غالبة
بالفضل ثوليه أو بالهول تغشاه
(13) وما على بلد أن لاتحلّ به
ومن يدريك وفي الفضل وافاه
(14) من يقصد المكر بالسلطان ثم يرى
أن الصنائع تحميه تحاماه

(1) في النسخة الثانية : عاداته

(2) يعني وصف الكرم الذي لأجله يقصده الضيوف و السبب بالباء العطاء وفيه
مع سيف جناس

- (15) وكيف يخذل عبد عند نائبة
مولى كفته هموم العيش كفاه
- (16) ياسيداً أحضرثنا دار مآدبة
على موائد للإكرام دعواه
- (17) لابد من شكر ما أوليت من نعم
فالشكر فرض ومن أبداه أداه
- (18) والعبد يعجز عن شيء يوصله
لشكر مولاه الأ نصح مولاه
- (19) لا يمنعك علم قد سموت إلى
أعلاه من أن ترى صبا بأدناه
- (20) والنفس محجوبة عنها سعادتها
فرب⁽¹⁾ ما حقرته ليس الاله
- (21) ولؤلؤ الحكمة المكنون في صدف
خذ ما أتى منه واطرح ماتغشاه
- (22) لائكرهن شراباً حل في خزف
ليس الإنا ذاته ما أنت تُسقاؤه⁽²⁾
- (23) ما الملك إلا عقيم لا ولي له
مستهدف للأعادي من تولاه

(1) في بعض النسخ لعل ما حقرته وفي الرابعة لعل ما أخطرت له ليس إياه

(2) معناه خذ الحكمة ولا تنتظر من أي وعاء خرجت

- (24) فاحفظ بعدل وفضل زورَ طائرهِ
فالفضلُ والعدلُ إن تنظرُ جناحاهُ
- (25) واجفُ الجفا وتوقُ الظلم أجمعه
فليس يسعد إلا من توقاهُ
- (26) ولا تذُرْ دعوةَ المظلوم سائبةً
لا سيما ان يكن من لاله⁽¹⁾ جاءهُ
- (27) إذا تعمّدت إنسانا بمظلمة
ولم يجد ناصراً فالتأصّرُ الله
- (28) وارفع يدَ العايل العادي الذي كثرت
به إليك الشكايا من رعاياهُ
- (29) لا قرب الله دارَ المرء يجعلني
أبيعُ من أجله ديني بدنياه
- (30) وشاور العلماءَ المستضاء بهم
فإن معذرة السلطان شورهُ
- (31) وكلُّ أمر له قومٌ به عُرِفوا
فاندب لكل مهمّ أهل بلواهُ
- (32) لا يعرف الشوق إلا من يكابده⁽²⁾
جئنا به مثلاً كما سمعناه

(1) هذا البيت ساقط من النسخة الأولى والثانية.

(2) هذا صدر بيت سائر وعجز : ولا الصباية إلا من يعانها

- (33) وَفَرَّ جُنُودَكَ بِالْأَرْزَاقِ تُوسِعُهَا
فَالزَّرْعَ يَزْكُوا إِذَا وَفَرْتَ سُقْيَاهُ
- (34) وَافْعَلْ بِهِمْ وَادْعَا مَا أَنْتَ فَاعِلُهُ⁽¹⁾
فَأَنْتَ يَوْمَ اشْتَعَالَ الْحَرْبِ تَجْزَاهُ
- (35) وَارْعَ الرِّعْيَةَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ
وَرُدِّهِمْ لَطَرِيقِ الرُّشْدِ إِنْ شَاهُو
- (36) وَلَا تُحْمِلْهُمْ إِصْرًا وَلَا رَهَقًا⁽²⁾
فَإِنَّهُمْ فِي اضْطِرَابِ الْحَالِ أَشْبَاهُ⁽²⁾
- (37) وَلِ الرِّسَائِلِ ذَا عَقْلٍ وَمَعْرِفَةٍ
بِالْكِتَابِ إِنْ كُنْتَ لِلْإِسْرَارِ ثَرِيضًا
- (38) وَاخْتَرَهُ بَرًّا سَلِيمَ الصَّدْرِ وَاسِعَهُ
فَالْمَالِ وَالرُّوحِ فِي مَضْمُونِ يُمْنَاهُ
- (39) وَحَاجِبِ الْمَلِكِ إِنْ فَكَّرْتَ حَاجِبُهُ⁽³⁾
فَانْظُرْ لَهَا كَيْأَ طَلَقَا مَحْيَاهُ
- (40) إِنْ قُلْتَ بِأَبْكَ مَعْنَى فَهُوَ لَفْظَتُهُ
أَوْ قُلْتَ بِأَبْكَ لَفْظَ فَهُوَ مَعْنَاهُ

(1) أي في حالة الأمن

(2) في النسخة الثانية أشياء بالياء وكتب عليا : جمع شياه الذي هو جمع شاة يعني أن الإيالة كالغنم والأمير راعيها فإذا حملها مالاتطبق ضيعها وضاع هو بسبب ذلك

(3) أي هو له كحاجب العين

- (41) وَلَ الْجِبَايَةَ مِنْ قَلَّتْ جَنَائِثُهُ
فِي مَالِهِ⁽¹⁾ وَرَبَّتْ فِي الْيُسْرِ كَفَاهُ
- (42) فَطَبَعُهُ مَانِعَ تَبْذِيرَ حَاصِلِهَا
وَمَالُهُ رَاقِعٌ تَمْزِيقٌ عُذْوَاهُ
- (43) أَمَرَ عَلَى الْجَنِيشِ مِنْ تَرْجُو كَفَايَتَهُ
وَدَغَ سَوَاهُ وَإِنْ نَاجَتِكَ قُرْبَاهُ
- (44) فَرَايَةُ النِّصْرِ مَكْتُوبٌ بِطَرَّتْهَا
بَيْتٌ عَلَى إِثْرِ هَذَا قَدْ كَتَبْنَاهُ
- (45) مَالِ الْجَبَانِ وَمَالِي لَسْتُ أَعْرِفُهُ⁽²⁾
أَمَّا الشَّجَاعُ فَيَهْوَانِي وَأَهْوَاهُ
- (46) أَجْعَلْ لِنَفْسِكَ جَاسُوساً تُفِيدُكَ مَا
يَدُورُ فِي النَّاسِ عَيْنَاهُ وَأُذْنَاهُ
- (47) وَاحْذَرُهُ أَنْ يَجْعَلَ التَّعْرِيفَ مَكْسَبَهُ
وَذَا التَّحْذِيرَ بِالْإِغْنَاءِ تَكْفَاهُ⁽³⁾
- (48) لَا تَسْخَرَنَّ بِأَمْرِ هَانَ أَوَّلَهُ
إِنْ الْحَرِيقُ بِقَذْحِ الزُّنْدِ مُبْدَاهُ
- (49) اسْتَعْمِلِ الْمَاجِدَ الْمَرْهُوبَ جَانِبَهُ
وَحِطْ بِالْعَمَلِ الْمُلْحُوظِ عَلَيْهِ

(1) أي مليا غير مسرف في ماله

(2) في بعض النسخ لست نسبته

(3) يريد اغن الخير لئلا يجعل وظيفه وسيلة للكسب.

- (50) فَالطَّرْفُ أَنْ تَحُلَّ عَنْ قَيْدِ قَوَائِمِهِ
أَزْرَى بِأَيْسِهِ عَدُوًّا فَأَعْيَاهُ
- (51) عَلَّقَ بِعَفْوِكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ كَمَا
تَعَلَّقَتْ بِطَبِيبِ الْوَقْتِ مَرْضَاهُ
- (52) فَالضَرْبُ⁽¹⁾ لِلْعَبْدِ أَدْنَى مَا يَلِيقُ بِهِ
وَالْعَفْوُ لِلْحَرِّ أَعْلَى مَا تَوْحَاهُ
- (53) لَا تَسْفِكَنَّ دِمَاءَ إِلَّا بِوَاجِبِهِ
فَمَنْ أَرَاكَ دَمَ الْعُدْوَانِ أَرَدَاهُ
- (54) وَلابْنُ عَبَّاسٍ الْحَبْرُ الَّذِي شُهِرَتْ
عِلْمُهُ مَذْهَبٌ فِيهِ عَرْفَاهُ⁽²⁾
- (55) إِنْ أَظْلَمَ الْخَطْبُ وَاعْتَصَمَتْ جَلِيَّتُهُ
وَأَشْكَلَتْ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ - فُتِيَاهُ
- (56) سَلَّمَ أُمُورَكَ لِلرَّحْمَانِ مُحْتَسِبًا
وَارِضَ الْقَضَاءَ فَمَنْ يَرْضَاهُ أَرْضَاهُ
- (57) وَاصْبِرْ فَمَا شِدَّةٌ إِلَّا لَهَا فَرْجٌ
وَرَاكِبُ الصَّبْرِ لَا تَكْبُو مَطَايَاهُ

(1) في أكثر النسخ فالذهب للبعد، ونسخة الضرب أولى لأنها تتضمن معنى تكرر في الشعر العربي مثل : الحريجي والعصى للبعد..

(2) مذهب ابن عباس في قاتل النفس أنه لا تقبل له توبة أخذاً من الآية (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) الآية، ولكن الجمهور على خلافه وحمل الآية على المبالغة في الزجر

- (58) اِرْدَعْ بَعْدَكَ مِنْ طَمَّتْ بَوَائِقُهُ
وَارْفُقْ بِمَنْ نَدَرْتَ مِنْهُ خَطَايَاهُ
- (59) وَدَاراً عَقُوبَةً مِنْ قَدْ ظَلَّ مُسْتَتِراً
كَمَا إِذَا أَحْدَثَ السَّنُورُ غُطَاهُ
- (60) لَا تَأْمَنْ مِنَ الْمَوْتُورِ بِائِقَةً
فَمَا نَسَاهُ مَدَى الْأَيَّامِ أَنْسَاهُ⁽¹⁾
- (61) وَاعْطِ نَفْسَكَ حِظاً مِنْ أَرَاخَتِهَا
فَالنَّفْسُ بِوَحْشِهَا كَذٌّ وَإِكْرَاهُ
- (62) وَإِنْ سَمَا لَكَ شَوْقٌ فِي مُخْذَرَةٍ
أَوْ شَادَنْ كُجِلَتْ بِالسَّحَرِ عَيْنَاهُ
- (63) فَاتَّكُمُ هَوَاهُ وَلَا تُظْهِرْ مُحِبَّتَهُ
فَالْحُبُّ ذَلٌّ وَعِزُّ الْمَلِكِ يَأْبَاهُ
- (64) إِنْ السَّعَايَةَ عَارُ فَاجْفُ صَاحِبَهَا
وَفَرَّ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَحْزَاهُ
- (65) وَزَارِعُ الْخَيْرِ مِنْ يُحِبِّهِ شَارِكُهُ
وَزَارِعُ الشَّرِّ مِنْ يُحِبِّهِ سَاوَاهُ
- (66) وَادْكُرْ يَتِيماً وَمَسْكِيناً وَأَرْمَلَةً
فَمَنْ تَذَكَّرْتَهُ فَالضَّرُّ يَنْسَاهُ⁽²⁾

(1) الموتور صاحب الثأر، والنساء بالفتح التأخير أي أن طول المدة لا تنسيه ثاره.

(2) المراد من تذكركه بالإحسان والمواساة.

- (67) وَاْمُذُّ يَدَ الْبِرِّ وَالرَّحْمَ لَٰذِي كِبَرٍ
دَتَّ خُطَاهُ لَدَهْرٍ قَدْ تَخَطَّاهُ
- (68) تَفَقَّدَ السَّجْنَ فَهُوَ الْقَبْرُ مِثُّهُ
حَبِيٍّ وَأَحْيَاؤُهُ أَمْثَالُ مَوْتَاهُ
- (69) مَاكُلٌ مَّعْتَقِلٌ بِالْعَدْلِ مَعْتَقِلٌ
كَمْ سَاجِنٌ غَيْرُهُ وَالسَّجْنُ وَاتَاهُ
- (70) لَا تُنْكِرِ الظُّلْمَ مِمَّنْ دَامَ فِي عَمَلٍ
فَإِنْ طُولَ مَدَاهُ فِيهِ أَطْفَاهُ
- (71) وَاعْزَلْ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ أَسْخَطَتْ حَالَتَهُ
وَمُهِمَّلاً وَلِ تَرْضِيهِ وَتَرْضَاهُ
- (72) خَزَانَةُ الْكُتُبِ أَكْثَرُ مِنْ ذَخَائِرِهَا
فَإِنْ أَبْهَتَ السُّلْطَانُ ذُخْرَاهُ⁽¹⁾
- (73) وَاجْلُبْ إِلَيْهَا دَوَائِينَ الْعُلُومِ وَمَا
يُعَدُّ مِنْ أَغْرَبِ التَّصْنِيفِ مَنَحَاهُ
- (74). الْخَطُّ وَالضَّبْطُ مِنْهَا رَوْضَةُ أَثْفِ
مِمَّا رَوَاهُ أَخُو جِذْقٍ وَرَوَاهُ
- (75) فَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدْرِ أَجْمَعُهُ
فَقِي الْقَرَاطِيسِ كُبْرَاهُ وَصَغْرَاهُ

(1) كانت عناية الموحدين بجمع الكتب عظيمة وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لاتستند إلا لكبار العلماء، وانظر ما فعله يوسف بن عبد المومن في هذا الصدد بكتاب المعجب ص 144

- (76) وَكُلُّ مَا جَمَعْتَ كَفَاكَ مِنْ نَشَبٍ
أَوْ صَامِتٍ وَلَوْ أَنَّ الرَّمْلَ حَاكَاهُ
- (77) بَدَّدَهُ فِي بَدْدٍ⁽¹⁾ الْأَعْدَاءُ عَنْكَ وَقِلَّ
لِيَوْمٍ سَوْءٍ رَفَعْنَا مَا جَمَعْنَاهُ
- (78) هَازِي السِّيَاسَةَ لَاحَتْ بَعْضُ أَنْجُمِهَا
مَا كُلُّ نَجْمٍ رَصَدْنَاهُ قَصْدْنَاهُ
- (79) نَسِيمٌ عِلْمٌ تَمْشَى فِي رُئْيٍ أَدَبٍ
لَوْ كُلُّ وَصْفٍ وَصَفْنَاهُ عَصَفْنَاهُ
- (80) شُكْرًا وَنَصْحًا نَفَضْنَا مِنْهُمَا⁽²⁾ جُرْبًا
وَبَعْضُ مَا قَدْ نَفَضْنَاهُ رَفَضْنَاهُ
- (81) تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ⁽³⁾
عَقْلٌ تَوْدِيهِ أَقْلَامٌ وَأَفْوَاهُ
- (82) الْيَوْمَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَالْجَزَاءُ غَدًا
وَيَلَاهُ مَنْ لَمْ يَفْكُرْ فِيهِ وَيَلَاهُ
- (83) كَانَ مَا نَحْنُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا
وَمَا نَصِيرُ إِلَيْهِ مَا فَقَدْنَاهُ
- (84) تَمُرُّ أَعْمَارُنَا مَرَّ السَّحَابِ وَلَا
وَقْتُ لَنَا بِسَوَى الدُّنْيَا عَمَرْنَاهُ

(1) أي في تفريقهم

(2) جمع جراب

(3) هذا صدر بيت مشهور لأبي الصلت الثقفي وعجزه : ثيبيا بماء فعاد بعد أبو الـ

- (85) تجاذب للأمانى ماله طَرْف
 كأنما سالت عبداً مناياهُ
- (86) نبكي على نزر دنيا إذ يفوت ولو
 قد فائنا الدينُ رأساً ما بكيناهُ
- (87) ثمسي وتُصبح من أمرين في غرر
 ذنب رضيناه أو حظٌ سَخِطناهُ
- (88) إذ عملنا بأعمال الهوى ثَبَّتْ
 وإن عقدنا له توباً⁽¹⁾ محوّناهُ
- (89) ولا نصيغُ إلى ماقال واعظنا
 وإن شدنا مغنياً سَمِعناهُ
- (90) الذَّهْرُ بالمرء من أخراه مرتجلٌ
 يحسرتاه ولا زادٌ لأخراه
- (91) لاعيشه هاهنا تصفُو مَوارِدُه
 ولا هناك من الأكدار صَفّاهُ
- (92) فكم تُغالط بالحُسنى ثُلُمٌ بها
 جهواً وأبعدُ نعت السر حُسناهُ
- (93) تُخفي القبيح وقد أزرى بجِشمتنا
 والمرء يذرى مُسمّاهُ بِسِيماهُ

(1) التوب : التوبة : قال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) وجاءت في أكثر النسخ
 بالهاء المثلثة خطأ

- (94) والله والله لولا آية منعت
من القنوط⁽¹⁾ لما كنا رجوناؤه
- (95) ومالذي يرتجي من يستعين على
أغراض أعداء مولاه بنعمائه
- (96) للأشعرية فينا مذهب عجب⁽²⁾
ومن سعادتنا أننا اعتقدناؤه
- (97) لو كان حتماً من الله الوعيد لنا
لم يسبق الغضب المكتوب رُحمائه

(1) يشير إلى قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)

(2) مذهب الأشعرية وأهل السنة على العموم أن الله عز وجل لا يجب عليه إثابة المطيع ولا عقوبة العاصي وإن حكم بذلك. نعم هو تعالى على لا يخلف وعده في إثابة المطيع وأما العاصي فهو في مشيئته تعالى إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، كما قال سبحانه (إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وهذا ما يعنيه الشاعر قد احتج له في البيت الأخير بمضمون الحديث الصحيح «إن رحمتي سبقت غضبي» ويخالف المعتزلة في ذلك أهل السنة فيقولون بوجوب إثابة المطيع وعقوبة العاصي، وهو قول مردود لأن الله لا مكره له، والوجوب في المسألة عرضي لا ذاتي، أي ليس عقلياً حتى يقال إنه لا يخلف. وقد قال الشاعر
وإني إذا أوعدته أو وعدته لخلف أبعادي ومنجز مواعيدي

قصيدة الواعظ الاندلسي في مناقب عائشة الصديقة

هذه قصيدة أخرى من أروع الشعر، الذي بقي منسياً ولم يعرف طريقاً إلى النشر مطلقاً، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بَلَّه المطبوعة، لم تتضمنه ولا أشارت إليه، فيما نعلم، بعد التتبع مدى طويلاً، وإنما هي من الوجادات المنفردة التي عثرنا عليها في بعض المجامع، فألفيناها من الأعلام النفيسة التي لا يصح أبداً أن تكون مهملة، ويخلو ديوان العرب منها.

وهي قصيدة في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، اشتملت على ذكر فضائلها وفضائل والدها أبي بكر الصديق، ومُجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها، ومُحاجَّتهم بالدليل من الكتاب والسنة، في إيمان صادق ودفاع حار، وبالواقع التاريخي الذي لانزاع فيه من سيرتها العطرة، وسيرة أبيها الخليفة الأول رضوان الله عليه، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع، ونظم محكم متين. وإلى هذا بقطع النظر عن كل اعتبار فالقصيدة تعبر عن عاطفة إنسانية رفيعة، لأنها تتخذ موقف المساندة بجانب

سيدة شريفة أثناء أزمة هي أعنف أزمة تمر بها امرأة في حياتها، فتنافع عنها وعن كرامتها حتى تحتفظ لها بسمعتها الطيبة وذكرها الجميل.

ومما أبرّ به صاحب هذه القصيدة، أنه جعلها على لسان السيدة عائشة نفسها فبعد المطلع الذي يؤذن بمقصوده، تخلص في البيت الثاني إلى إعطائها الكلمة، فجعلها هي التي تُناظر وتُفاخر وتدفع في نحور الأعداء بسلاح الحجة والبرهان الذي يُطوّقهم الخزي والعار، فلو أنها رضي الله عنها نطقت فعلا بشعر في الموضوع، لما زادت على ما احتوته هذه القصيدة، وهي من هي قوة بيان وشدة عارضة.

وهذا مما يدل على بلاغة منشئها ومقدرته البيانية، وتمكّنه من صناعة الشعر فضلاً عن رسوخ قدمه في المعرفة بعلم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية وإذن فمن هي هذه الشخصية العلمية الكبيرة ؟

صاحب القصيدة

كما أهملت القصيدة أهمل صاحبها، فلم نقف له على ترجمة في كتاب، مما وصلت إليه يدنا من كتب التراجم الأندلسية والعامة. وغاية مانجده مذكوراً مع القصيدة هو اسمه المجرد من كل تعريف أو تحديد لعصره بالوفاة أو غيرها، وهو يقع في كل النسخ التي

سندكرها من بعد، بصورة واحدة هكذا : أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي.

وقد أوحى لنا هذا الوصف من أول وهلة أنه ربما (وَرُبَّ للتكثير) أطلق عليه في المشرق، لأنه لا يصح أن يعرف به وهو في بلده الأندلس، فالأندلسيون يُنسبون عادة إلى قبائلهم أو مدنها وقراهم، وقلمما يجري وصف الواعظ بينهم مقصوراً على شخص بعينه. وبالعكس من ذلك فإن الشخص إذا اغترب كثيراً ما ينسى أصله وينسب إلى قطره فقط، والوصف بالواعظ معهود في المشرق متداول، منذ أن ترك وصف القاص الذي لم يُستعمل هو أيضاً في الأندلس ولا في المغرب عموماً.

وعليه يكون صاحبنا قد رحل إلى المشرق، وزاول هناك مهمة الوعظ فعرف بها ونُسب إلى قطره الأندلس، وتنويسي نسبه الأصيل، بل تُنوسيت ترجمته في بلده وفي المشرق، كما وقع لكثير غيره ممن رحل إلى المشرق من المغرب أو إلى المغرب من المشرق، وقد كنا أشرنا إلى هذه الحقيقة في تعريفنا بالواعظ البغدادي صاحب القصائد الوثريات الشهيرة.

وقد تحقق لنا هذا الاحتمال عندما اطلعنا على نسخة شرقية من القصيدة كتبت في مصر، وعليها سماع من الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس، متصل بناظمها. وقد جاء في آخر السماع أن الأفضل وزير مصر السنّي أجازها عليها بمائة دينار لما بلغته.

وأهمية هذا السماع عظيمة جداً، لأنه أفادنا برحلة المترجم إلى المشرق أو مصر على الأقل، حيث أُطلق عليه اسم الواعظ الأندلسي على مارجحنه آنفاً.

وحدد لنا تاريخه أو عصره على الأصح، وهو آخر القرن الخامس وأوائل السادس فإن الوزير المشار إليه توفي سنة 515⁽¹⁾

وهو الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وزر للمستنصر والمستعلي والامر من خلفاء الفاطميين بمصر، وأظهر الميل للسنة، وأبطل الكثير من مراسيم الشيعة وكان من العدل وحسن السيرة على صفة جمالية⁽²⁾، فلا غرو أن يُجيزَ شاعرنا على قصيدته في مدح أم المؤمنين عائشة بتلك الجائزة السنوية التي تفوق قيمتها المعنوية قيمتها المادية، لاسيما إذا تذكرنا أن الدولة شيعية، وأن رأي الشيعة في عائشة وأبيها ليس بذاك. ولكن الرجل، وإن نشأ في هذه البيئة الشيعية وولي أعظم منصب للخلفاء الفاطميين، لم يكن مغالياً في الانتصار لمذهب الدولة، على ما ينبغي للوالي أن يكون، بل إنه كان يميل لمذهب أكثرية الرعية، وهو مذهب السنة، فكانت إجازته للقصيدة تعبيراً عن هذا الرأي فضلاً عن تقديره لها ولصاحبها. وقد ثبت في تاريخه أيضاً أنه أجرى على العالم أبي بكر الطرطوشي في الاسكندرية، دينارين في اليوم، والطرطوشي من أئمة السنة

(1) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 175

(2) المرجع السابق

المعروفين، فهذا من أكبر الأدلة على تفتُّحه وعدم تعصبه.

والخلاصة أن صاحبنا الواعظ الأندلسي زار مصر في مدة وزارة الأفضل، وهي تمتدُّ ما بين الثلث الآخر من القرن الخامس وأواسط العقد الثاني من القرن الذي يليه، ولعله أقام فيها طويلاً، مثل الامام الطرطوشي، فإن عبارة السماع القائلة إن الأفضل أجازته على قصيدته «لما بلغته» تدل على ذلك.

ولا يبعد أنه قام في مصر بنشاط أدبي مما يرتبط بصفته العلمية، ومن ثمَّ اكتسب وصف الواعظ الذي صار حلية لازمة له، فمصر حينئذ كانت بحاجة إلى أمثاله ممن يقفون في وجه الدعوة الفاطمية، ويرفعون علم السنة، كمواطنه الطرطوشي، ولا شك أنه عقد صلاتٍ مع رجالات مصر من أهل طبقته، كما يؤخذ من نص السماع الذي ينتهي برواية القصيدة عنه؛ من طرف واعظ مثله هو أبو طاهر عبد المنعم موهوب اليزني الواعظ.

السماع

لا يعنينا من السماع المذكور غير دلالاته التاريخية، ولذلك فنحن لاهتم بغير هذا الجانب منه، وقد ثبت عقب النسخة الشرقية من القصيدة الموجودة بآخر كتاب (هدايات الباري على ثلاثيات البخاري) لعلّي الخلوقي مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 60 وهو بخط مصطفى الحكيم الذي وصف نفسه بخادم العلم

بالأزهر، ناقلا له من خط من نقل من خط الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الذي أنشده إياها هو وجماعة من المشايخ الشيخ مرتضى الزبيدي، بجامع شيخو العمري، بالسند المتصل إلى أبي طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ : قال أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي لنفسه في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأجازه الأفضل وزير مصر السنّي عليها بمائة دينار لما بلغته رضي الله عنها ورحم الله القائل. وفي السند الشمس الرّملي وشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري والحافظ ابن حجر. وهو ما بين قراءة وسماع، ويليه تصحيح بخط الشيخ مرتضى قائلا :

إن الشبراوي المذكور سمع منه القصيدة هو ونحو ثلاثين نفسا ضبطت أسماؤهم على ظهر نسخة الأصل، وذلك يوم الإثنين ليلتين بقيتا من شعبان سنة 1186. ثم بخط الشبراوي سماعان لبعض من أخذها عنه، أحدهما بتاريخ ثاني شوال عام 1189، والثاني بتاسع محرم عام 1202، وبعدهما : كتبها لنفسه محمد أحمد المرصفي الشافعي سنة 1255، ومن خط المرصفي نقل مصطفى الحكيم كل ما ذكر فهو أحدث تاريخاً من هذا.

وعلى أي حال فإن هذا السماع بين القيمة الكبيرة للقصيدة، وما تلقاها به هؤلاء الأعلام من حفاوة بالغة، وهي جديرة بذلك.

نسخ القصيدة

وقفت على أربع نسخ من قصيدة الواعظ الأندلسي. الأولى منها، والتي طالت صحبتي لها مذ أصبحتُ أقدّرُ قدر هذه الكنوز الأدبية، هي نسختي الخاصة التي توجد ضمن مجموع خطي بمكتبتنا الكنّونية، وهي بخطٌ مغربي جميل تغلب عليه الصحة، ولا يتدنّى تاريخاً عن القرن الثاني عشر، وقد نالت الأرضة من أطراف الصفحات الثلاث التي كتبت عليها، ولكنها لم تؤثر في نصها تأثيراً يذكر والثانية والثالثة والرابعة هي من محتويات المكتبة العامة بتطوان، وتقع ضمن ثلاثة مجاميع تحمل على الترتيب الأرقام التالية : (656) و (830) و (60) والرقم الأخير هو رقم كتاب هدايات الباري على ثلاثيات البخاري الذي تقدم الكلام عليه، وهو بخط شرقي وسط، وكذلك القصيدة والسماع الذي يوجد عقبها، وهي لا تخلو من تصحيف وتمتاز بزيادة بيت في وصف الصديق خلت منه بقية النسخ، وهو البيت 24.

أما نسختنا المجموعين الآخرين فإنهما بخط مغربي لابأس به، وترجعان فيما نظن إلى القرن الماضي، وتشتملان كذلك على هتّوات ترجع في الغالب إلى ضعف الثقافة الأدبية عند ناسخيهما، كما يمكن أن يقال في النسختين السابقتين ولو أن من يهتم بهذه الآثار لا يكون من غير أهل العلم. لكن العلم شيء، والأدب شيء آخر. وقد قابلنا هذه النسخ بعضها ببعض، واستخرجنا منها النسخة

الصحيحة في. نظرنا، ونبها في التعليق على الخلاف الجوهري الذي بينها، وشرحنا كذلك ما يحتاج إلى الشرح من معانيها وألفاظها، ولا سيما إشارتها المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة التي لا يتأتى لكل قارئ العثور عليها.

هذا، وثم نسخة خامسة للقصيدة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية لم نطلع عليها لأنها عُبِثت منذ مدة مع بعض المخطوطات في صناديق لضرورة ما، كما أخبرنا أحد المسؤولين في المعهد، فلم يمكن الاهتداء إليها.

وهذا نص القصيدة :

- (1) مَا شَأْنُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَشَانِي
هُدْيِ الْمُحِبِّ لَهَا وَضَلَّ الشَّانِي⁽¹⁾
- (2) إِنِّي أَقُولُ مُنْبَهًا عَنْ فَضْلِهَا⁽²⁾
وَمُتَرَجِمًا عَنْ قَوْلِهَا بِلِسَانِي
- (3) يَا مُبْغِضِي لَأَنَاتِ قَبْرِ مُحَمَّدٍ
فَالْبَيْتُ يَتَنِي وَالْمَكَانُ مَكَانِي
- (4) إِنِّي خُصِصْتُ عَلَى نِسَاءِ مُحَمَّدٍ
بِصِفَاتٍ بَرٍّ تَحْتَنُّ مَعَانِ

(1) الشاني : المبعض

(2) عن هنا بمعنى على كما في قول الشاعر :

لَا هـ . ابْنُ عَمَلِكٍ لِأَفْضَلَتْ فِي حَسَبِ

عَنِي وَلَأَنْتِ دِيَّانِي فَتَحْزُونِي

- (5) وسبقتن إلى الفضائل كلها
فالسبقتُ سبقي والعنان عِناني
- (6) مَرِضُ النَّبِيِّ ومات بين ترائبي⁽¹⁾
فاليومُ يومي والزمانُ زماني
- (7) زوجي رسولُ الله لم أرَ غيرَه⁽²⁾
الله زَوَّجني به وَحَبَّاني
- (8) وَأَتَاهُ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ بِصُورَتِي
وَأَحْبَنِي بِالمُخْتَارِ حين رآني⁽³⁾
- (9) أَنَا بِكُرْهُ الْعِذْرَاءِ⁽⁴⁾ عِنْدِي سُرْهُ
وَضَجِيعُهُ فِي مَنْزِلِي قَمَرَان
- (10) وَتَكَلَّمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي
وَبَرَاءَتِي فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ⁽⁵⁾

-
- (1) في الحديث أنه ﷺ استأذن نساءه أن يُمرض في بيت عائشة، فأذن له، وقالت عائشة : قُبِضَ رسولُ الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي
 - (2) من المعلوم أنها «ض» لم تتزوج بغيره ﷺ.
 - (3) في الصحيح قال ﷺ لعائشة : أُرَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ جَاءَنِي بِكَ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَقَالَ هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَقُلْتُ إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمِضِهِ.
 - (4) من المعلوم أنه ﷺ لم يتزوج بكراً غير عائشة.
 - (5) أنزل الله عز وجل في براءتها عشر آيات هي قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْآفَافِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» الآيات 11 — 20 من سورة النور

- (11) والله خَفَرَنِي⁽¹⁾ وعَظَّم حُرْمَتِي
وعلى لسان نَبِيِّهِ بِرَّانِي⁽²⁾
- (12) والله في القرآن قد لعنَ الذي
بعد البراءة بالقبيحِ رَمَانِي⁽³⁾
- (13) والله وَبَّخَ من أراد تنقصي
إفكاً، وَسَبَّحَ نفسه في شَأْنِي⁽⁴⁾
- (14) إِنِّي لَمُحْصَنَةٌ الْإِزَارَ بِرِثَّةٍ
ودليلُ حُسْنِ طَهَارَتِي إِحْصَانِي
- (15) والله أَحْصَنَنِي بِخَاتَمِ رُسُلِهِ
وَأَذَلَّ أَهْلَ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ
- (16) وَسَمِعْتُ وَحْيَ اللَّهِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ
من جبرئيلَ ونورَهُ يَغْشَانِي

(1) بالتشديد، أمني وحماني، وفي نسختنا ونسخة. 73 خيرني بالياء.

(2) بتخفيف الهزة

(3) يشير إلى الآية 22 من سورة النور وهي قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

(4) يشير إلى قوله تعالى : «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» وَسَبَّحَ نفسه، هو ما في نسخه 60 وباقي النسخ فيها سَبَّحَ شَأْنَهُ وَلَعَلَّهَا تَصْحِيفٌ.

(17) أَوْحَى إِلَيْهِ⁽¹⁾ وَكُنْتُ تَحْتَ ثِيَابِهِ
فَحَنَّا عَلَيَّ بِثَوْبِهِ وَخَبَانِي⁽²⁾

(18) مَنْ ذَا يُفَاخِرُنِي وَيُنْكِرُ صُخْبَتِي
وَمَحَمَّدٌ فِي حَجَرِهِ رَبَّانِي

(19) وَأَخَذْتُ مِنْ أَبِيِّي دِينَ مُحَمَّدٍ
وَهُمَا عَلَى الْإِسْلَامِ مُصْطَحِبَانِ

(20) وَأَبِي أَقَامَ الدِّينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
فَالنَّصْلُ نَصْلِي وَالسُّنَانُ سِنَانِي

(21) وَالْفَخْرُ فَخْرِي وَالْخِلَافَةُ فِي أَبِي
حَسْبِي بِهَذَا مَفْخَرًا وَكَفَّانِي

(22) وَأَنَا ابْنَةُ الصَّدِّيقِ صَاحِبِ أَحْمَدٍ
وَحَبِيبِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ

(23) نَصَرَ النَّبِيَّ بِمَالِهِ⁽³⁾ وَقَعَالِهِ
وُخْرِجَهُ مَعَهُمَنْ الْأَوْطَانِ

(1) في نسخة 60 أوحى، وفي باقي النسخ يوحى، والإشارة لما في الصحيح قال رسول الله ﷺ : يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام.. الحديث.

(2) بتخفيف همزة خباني.

(3) في الحديث : مانفعي مال مانفعي مأل أبي بكر.

- (24) ثانيه في الغار الذي سدّ الكوى⁽¹⁾
 بردائه، أكرم به من ثان⁽²⁾
 (25) وجنى العنا حتى تخلل بالعبا⁽³⁾
 زهداً وأذعن أيما إذعان
 (26) وتخللت معه ملائكة السما
 وأتته بشرى الله بالرضوان
 (27) وهو الذي لم يخش لومة لائم
 في قتل أهل البغي والعُدوان
 (28) قتل الأولى منعوا الزكاة بكفرهم⁽⁴⁾
 وأذلّ أهل الكفر والطغيان
 (29) سبق الصحابة والقراة للهدى
 هو شيخهم في الفضل والاحسان

-
- (1) جمع كوة يريد ثقباً كانت في الغار سدها أبو بكر بقطع من ثوبه
 (2) يشير إلى قوله تعالى : «ثاني إثنين إذ هما في الغار». وهذا البيت بما انفردت
 به النسخة 60
 (3) يشير إلى نزول جبريل على النبي ﷺ وعنده أبو بكر قد تخلل بعباءة وسؤال
 جبريل عنه وإجابة النبي له بأنه أنفق ماله عليه يعني حتى افتقر. وفيه أن جبريل
 أقرأه السلام من الله عز وجل وقال له إن الله تعالى يقول لك أراض أنت في
 فقرك هذا أم ساخط ؟ الحديث، وقد ذكره هو وتخريجه المحب الطبري في الرياض
 النضرة.
 (4) بعد وفاة النبي ﷺ ارتدت قبائل من العرب، وامتنعت قبائل أخرى من أداء
 الزكاة فقاتلها كما قالت المرتدين. وبذلك حمى أركان الاسلام من الضياع.

- (30) واللّٰهُ مَا اسْتَبَقُوا لَنِيْلٍ فَضِيْلَةٌ
 مَثَلُ اسْتَبَاقِ الْخَيْلِ يَوْمَ رِهَانٍ
- (31) إِلَّا وَصَارَ أَبِي إِلَى عَلِيٍّ هَا
 فَمَكَانَهُ⁽¹⁾ مِنْهَا أَجَلٌ مَكَانٌ
- (32) وَيَلُّ لَعْبِدٍ خَانَ آلَ مُحَمَّدٍ
 بَعْدَاوَةَ الْأَزْوَاجِ وَالْأَخْتَانِ⁽²⁾
- (33) طَوْبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةً صَحْبَهُ
 وَيَكُونُ مِنْ أَحْبَابِهِ الْحَسَنَانِ⁽³⁾
- (34) بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ أَلْفَةٌ
 لَا تَسْتَحِيلُ بِنَزْعَةِ الشَّيْطَانِ
- (35) هُمْ كَالْأَصَابِعِ فِي الْيَدَيْنِ تَوَاصُلًا
 هَلْ يَسْتَوِي كَفٌّ بَغَيْرِ بَنَانٍ
- (36) حَصِيرُثُ⁽⁴⁾ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ بِوَالِدِي
 وَقُلُوبُهُمْ مُلِئَتْ مِنَ الْأَضْغَانِ
- (37) حُبُّ الْبَثُولِ وَبِعْلُهَا لَمْ يَخْتَلَفْ
 مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ فِيهِ اثْنَانِ

(1) في نسخة 60 بمكانه بالباء، وهو تصحيف.

(2) جمع ختن وهو زوج البنت، وقد سَوَّى في هذا بين من يُعَادِي عَائِشَةَ وَعَلِيًّا
 «ض».

(3) هذا تأكيد على مذهب أهل السنة وهو مَوَالَاةُ الْآلِ وَالْأَصْحَابِ جَمِيعًا.

(4) ضاقت.

- (38) تُسَجَّتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدًّا فِي لُحْمَةٍ⁽¹⁾
فَبَنَّاؤُهَا مِنْ أَثْبَتِ الْبُنْيَانِ
- (39) وَاللَّهُ أَلْفَ يَنْ وَدَّ قُلُوبَهُمْ
لِيُغَيِّظَ كُلَّ مُنَافِقٍ طَعَّانٍ⁽²⁾
- (40) رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ صَفَتْ أَخْلَاقَهُمْ
وَحَلَّتْ قُلُوبَهُمْ مِنَ الشُّنَّانِ
- (41) فَدَخُلُوهُمْ بَيْنَ الْأَحْبَةِ كُلِّفَةٍ
وَسَبَّابُهُمْ سَبَّبٌ إِلَى الْحَرَمَانِ
- (42) جَمَعَ الْإِلَهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَبِي
وَاسْتَبَدَلُوا مِنْ خَوْفِهِمْ بِأَمَانِ
- (43) وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نُصْرَةَ عَبْدِهِ
مَنْ ذَا يُطِيقُ لَهُ عَلَى خِدْلَانِ
- (44) مَنْ حَبْنِي فَلْيَجْتَنِبْ مِنْ سَبْنِي
إِنْ كَانَ صَانٍ⁽³⁾ مُحِبَّتِي وَرِعَانِي
- (45) وَإِذَا مُحِبِّي قَدْ أَلْظَّ بِمُبْغِضِي
فَكَلَاهُمَا فِي الْبَغْضِ مَسْتَوِيَانِ

(1) في جميع النسخ : لحمه بالهاء، والتصحيح من نسخة 60.

(2) في نسختنا ونسخة 730 : طغيانى، وليس يشيء. والطعان المراد بها هنا كثير الطعن والعيب.

(3) في نسختنا ونسخة 730 : صاني. وما أثبتناه هو ما في النسختين الآخرين وهو أولى.

- (46) إني لطَّيِّبَةٌ خُلِقْتُ لطَّيِّبٍ
ونسَاءُ أَحْمَد⁽¹⁾ أَطْيَبُ النِّسْوَانِ
- (47) إِنِّي لَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ أَبَى
حَبِّي فَسَوْفَ يَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ
- (48) اللَّهُ حَبِيبِي لِقَلْبٍ نِيَّهِ
وإلى الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هِدَايِي
- (49) وَاللَّهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كِرَامَتِي
وَيُهِنُ رَبِّي مَنْ أَرَادَ هَوَانِي
- (50) وَاللَّهُ أَسْأَلُهُ زِيَادَةَ فَضْلِهِ
وَحَمْدُهُ شُكْرًا لِمَا أَوْلَانِي
- (51) يَأْمَنُ يَلُودُ بَيْتَ آلِ مُحَمَّدٍ
يَرْجُو بِذَلِكَ رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ
- (52) صِلْ أُمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَحْذُ
عَنَّا فَتُسَلَبَ حُلَّةُ الْإِيمَانِ
- (53) إِنِّي لَصَادَقَةٌ الْمَقَالِ كَرِيمَةٌ
إِي وَالَّذِي ذَلَّتْ لَهُ الثَّقَلَانِ
- (54) خُذْهَا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ رَوْضَةٌ
مُخْفَوْفَةٌ بِالرُّوحِ⁽²⁾ وَالرَّيْحَانِ

(1) هكذا في نسخة 60 وفي باقي النسخ : طيب.

(2) في النسخ الثلاث غير 60 : بالراح، وهو خطأ.

55) صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
فَبِهِمْ تَشْمُ⁽³⁾ أَزَاهِرُ الْبُسْتَانِ

(3) في نسخة 60 : تنم، بالنون.

القصيد الشقراطية في مدح المصطفى

لاحظت في كتابي «أدب الفقهاء» أن مدح النبي ﷺ، مما اختص به مشائخ العلم وأدباء الفقهاء، وأنه بعد شعراء الصحابة الذين عاصروا ظهور الاسلام كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، لم يتعاط أحد من شعراء العربية الكبار في العصر الأموي والعصر العباسي هذا اللون من المدح الذي يعد فنا من فنون الشعر العربي، متفردا بما يسجله من صور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي وإعلان رسالة الإسلام التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وأحلت العرب محل الصدارة بين الأمم ذات التاريخ المشرق والمجد العريق، وهو حري أن يصنف في شعر السير والملاحم، ويستظهر به في مقابل الشعر القصصي الذي يُوخذ على شعرنا القديم خلوه منه، لاسيما والكثير منه يقع في مطولات رائعة تستوعب ذكر أحداث السيرة النبوية، بأسلوب أدبي ممتع يتخلله الانطباع النفسي للشاعر وتجاوبه مع هذه

(٥) أعيدت كتابة هذا البحث باعتماد ثلاث نسخ أخرى من القصيدة الشقراطية زيادة على النسخ الثلاث التي كتبت عليها أولا.

الأحداث، مما جعل الناس يتغنون به ويتناشدونه في المناسبات القومية والاجتماعية.

وأن ينتشر الشعر في جميع الأوساط، ويحتفل الناس به هذا الاحتفال، دليل على أنه يمس أوتار القلوب، ويعكس شعور الأمة التي قيل فيها، وأنه متميز في بابه، فهو وإن كان مدحا، ليس كسائر الأمداح، لأنه سجل حافل بالمفاخر والمآثر التي يدرك الجميع وكل فرد فرد أنها مفاخره ومآثره هو نفسه.

ومن أوائل مطولات هذا الشعر التي أشرت إليها هناك القصيدة الشقراطية.

القصيدة وصاحبها

الشقراطية قصيدة لامية من بحر البسيط في مدح الرسول ﷺ، واستعراض وقائع السيرة النبوية وحياة الدعوة الإسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل. والتصوير والتسجيل مما يتجاوز حد الوصف وأبياتها في فتح مكة أكثر من رائعة وهي تقع في 133 بيت، وشهرت بالنسبة إلى ناظمها أبي محمد عبد الله بن يحيى بن علي التوزري المعروف بالشقراطي نسبة إلى قلعة قديمة كانت بالقرب من قفصة في تونس تسمى شقراطس، على أنه عاش في مدينة توزر، وكان من فقهاؤها ونبغ في الأدب والشعر، وله كتاب «الإعلام في معجزات خير «الأنام» وغيره من الأوضاع وأخذ عنه

جماعة من أهل العلم كأبي الفضل ابن النحوي، وحج وزار وأنشد قصيدته هذه بالمدينة المنورة تجاه الروضة الشريفة، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة 466 هـ.

وتمتاز الشقراطية بأنها من الملاحم المطولة التي فتحت باب نظم السيرة واقتحمت معركة الشعر التاريخي بنجاح، فنالت بذلك شهرة كبيرة، وتلقاها الناس بالقبول، ولم يقلل من انتشارها إلا ظهور قصيدتي البردة والهمزية للإمام البوصيري الذي تقفى خطوات الشقراطي ونسج على منواله، ولكن تاريخ الأدب نسيه أو تجاهله، على أنها خلت مما أخذ على القصيدتين من غلو في بعض أبياتهما.

تقريظ الناس لها واهتمامهم بها

كثر الثناء على الشقراطية والتنويه بها من جهابذة العلم وعباقره الأدب، وقدروا مجهود صاحبها سواء من ناحية السبك والصياغة، أو من ناحية المؤدى والمضمون، وهي في الحقيقة حرية بذلك وأجدر بما قيل فيها. فهذا الرحالة العبدري المعروف بعلو كعبه في الأدب والنقد يقول بعدما أوردها كاملة في رحلته مانصه : «قلت أبدع هذا الناظم رحمه الله فيما نظم، وشرف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم، فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسا ومخبرا، فهي كما وصفها أبو عبد الله المصري حين قال (يمست عن معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الأجماع، وطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطول والعرض).

وأبو عبد الله المصري الذي ورد ذكره في كلام العبدري هو
بلدي الشقراطسي من توزر ولكنه شهر بالمصري ويعرف بابن
الشباط وقد كان محتفلاً بهذه القصيدة رواها بالسند المتصل إلى
ناظمها، ورويت من طريقه وشرحها وخمسها وسمى تخميسه بسط
الهدى في الفخر المحمدي وذكر العبدري مطلعها وهو هذا :

إبدأ بحمد الذي أعطى ولم تسَل
وذد به ريب رين الأين والكسل
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل
(الحمد لله منا باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل)

و قد أثنى العبدري على هذا المطلع وحكم له بالإجادة وهو
كذلك ولا يستغرب من ابن حبيش فإنه كان على تضلعه في العلوم
راسخ القدم في الادب وله شعر ينم عن ذوقه وانطباعه.

ومن أثنى على الشقراطسية ثناء عاطراً، الشيخ أحمد بن عمار
صاحب كتاب نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، نقل عن
الرباع كلاماً في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وما يستحسن
إنشاده من الشعر، ومنه هذه القصيدة، وذكر أبياتاً منها في هذا
الغرض. فعقب عليه ابن عمار بقوله فيها : «وهي من القصائد
العظام البديعة النظام، الرائقة المعاني الوثيقة المباني، وهي من الطراز
الأول، وعليها في هذا الباب المعول، وقد رأيت أن أثبتها هنا برمتها،

لانتقياد البلاغة في أزمته ولكونها فتحت للافتتان أبوابا. وأحكمت من نسج البديع أثوابا وطارصيتها في الآفاق، وانعقد على بركتها الاجماع والاتفاق» ثم أتى بها كاملة وأعقبها بكلام الناس فيها وماسبق إirاده من أمثلة التخميسات التي وضعت عليها وغير ذلك.

على أن من الأدباء من شطرها ومنهم من عشرها، وتتبع ذلك يطول وأما عن شروحها من غير ما ذكر فكثير وهذا دليل ناصع على ماكان لها من شهرة واسعة وأنها اعتبرت نسيجة وحدها لما ظهرت، كما ألعنا لذلك من قبل وأشار له الشيخ ابن عمار في سجعاته المذكورة آنفا.

نقد العبدري لها

قدمنا ماقرظ به العبدري هذه القصيدة، ونورد أيضا ملاحظه على بعض أبياتها، إذ كان ناقدا قلما يسلم من وخزاته أحد، وإليك مقاله بإثر كلامه السابق في نقدها «على أنه رحمه الله تعالى قد أكثر فيها لأجل الصناعة التصنع، وتكلف منها ماهو بعيد المرام، شديد التمنع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغرق النزع فخالف الغرض، كقوله (فويل مكة من آثار وطأته) البيت، وقوله : (وحل بالشام شؤم غير مرتحل) وماجرى هذا المجرى من كلامه رحمه الله ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت وجهها زهاه الحسن أن يتنقع⁽¹⁾ فإن أنكرت من وصفها قولاً، أو

(1) هذا تعبير مقتبس من عمر بن أبي ربيعة في بيت من قصيدة عينية يقول فيه :
ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاه الحسن أن تتقنعا

سمعت في مدحها تخصيص لولا، أحررت متأملة، وأنشدت متمثلة :

ماسلم البدر على حسنه
كلا ولا الظبي الذي يوصف
البدر فيه كلف ظاهر
والظبي فيه خنس يعرف...

وهذا الذي انتقده العبدري من قول الشقراطسي لا يتوجه عليه إذا استحضرنا أنه يتكلم على مكة، وهي في قبضة المشركين، فالويل منصرف إليهم وليس لها، وكذا القول في الشام، ماحل بها من الشؤم، إنما هو لمن حل بها من الروم لاجبها أما التصنع ويعنى به صناعة البديع فإنه كان حلية الكلام، وحلبة التباري بين الأدباء في تلك العصور، والناقد نفسه لم يسلم منه في كثير من كلامه، وقد رجع فأقر بتفوق القصيدة في مجال البلاغة، والحق هو هذا الذي وقع عليه الانفصال.

نسخ القصيدة التي قابلناها عليها

يبدنا للشقراطسية ست نسخ كاملة إحداها مخطوطة من القرن التاسع الهجري أو العاشر على الأكثر فيما يظهر وهي في خمس صفحات كبيرة من ستة وعشرين وسبعة وعشرين سطرا.

ومدادها فاتح، وبعض أبياتها وهي التي تكون بمثابة الفصل بين موضوع وآخر، مكتوبة بالأحمر وكذا بعض الاعلام وإسم الجلالة بالخصوص، وبعضها الآخر بالأخضر، وهي مشكولة شكلا تاما

وصحيحها وبهامشها كلمات تشير إلى اختلاف النسخ في بعض الأبيات مما يدل على أنها نسخة مقابلة بغيرها فيمكن اعتمادها باطمئنان.

والثانية والثالثة هما نسختا رحلتي ابن عمار والعبدري، والأولى مطبوعة في الجزائر سنة 1322 هـ = 1904 م والثانية مطبوعة في الرباط سنة 1968 بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي.

والرابعة نسخة كتاب المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح المطبوع بمصر سنة 1352 هـ = 1933 م وهي ختام الكتاب، وقد جاء في آخرها ببيان أحدهما في الصلاة على النبي ﷺ والثاني يتضمن تسمية الناظم، وهما مثل البيتين اللذين يضافان إلى قصيدة البردة للبوصيري في الصلاة عليه ﷺ، ويظن أن الباعث عليهما خفاء عبارة الصلاة التي ختمت بها كل من القصيدتين لصياغتها الأدبية البليغة فعبّر صاحبا البيتين بعبارة صريحة في الصلاة يفهمها الجميع. وعلى كل فهذان البيتان المشار إليهما ليسا من القصيدة بحال.

والخامسة نسخة كتاب نهاية الأرب للنويري، طبعة مصر سنة 1374 هـ = 1954 م تصويرا عن طبعة دار الكتب. وقد جاءت في آخر الجزء الثامن عشر منه، وهذه نسخة وقع فيها اضطراب وخلط بين أبياتها بحيث فقدت الترتيب الطبيعي الذي يجعل معانيها متساوقة منسجمة. وذلك في أربعة مواضع. الأول بعد البيت 57

حيق أقحم ستة أبيات ابتداء من البيت 100 إلى البيت 105. والثاني بعد هذا البيت بالذات إذ أقحم البيت 64 إلى البيت 99 والثالث إثر هذا البيت إذ جاء بعده البيت 55 إلى البيت 64 والثالث بعد هذا البيت حيث أقحم البيت 106 إلى النهاية، فهي إن كان نصها سليماً في الجملة إلا أن ترتيبها لا يعتمد⁽¹⁾.

والسادسة نسخة كتاب الحديد في أدب الجريد للأستاذ أحمد البختري التونسي المطبوع سنة 1973.

وتم قطع من القصيدة مخطوطة وقفنا عليها في بعض الجامع وشروح السيرة النبوية وكتب الأمداح، ومطبوعة في بعض هذه الشروح والكتب المنشورة كشرح الزرقاني على المواهب ذكرت على سبيل الاستشهاد، وقد راجعناها عند المقابلة استئناساً بها كأنها نسخة سابعة وتم بذلك إخراج النسخة التي نقدمها للقارئ، وتصحيحها بقدر الوسع والطاقة، مع الإشارة في ذيول الصفحات إلى الاختلافات الواقعة بين هذه النسخ في الجملة، وإن كان بعضها قد يعد من خطأ الطبع في المطبوع منها والكمال لله ونشير إلى نسختنا بحرف الخاء وإلى نسخة رحلة ابن عمار بحرف العين وإلى نسخة رحلة العبدري بحرف الراء وإلى نسخة المنهاج الواضع بحرف الميم وإلى نسخة نهاية الأرب بحرف النون وإلى نسخة كتاب الحديد بحرف الجيم.

(1) نبهني إلى هذه النسخة الأستاذ الصديق بن العربي محافظ الخزانة العامة بمراكش. فله الشكر.

نصها

- (1) الحمد لله منا باعث الرسل
هدى (بأحمد) منا، أحمد السبيل
- (2) خير البرية من بذو ومن حضر
وأكرم الخلق من حافٍ ومُتَعِل
- (3) توراة موسى أتت عنه فصدّقها
إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
- (4) أخبار أخبار أهل الكتب قد وردت
عما رأوا أو رَوَوْا في الأعصر الأول
- (5) ضاعت بمولده الآفاق واتصلت
بُشرى الهواتف في الإشراف والطفل
- (6) وصرح كسرى تداعى من قواعده
وانقضَّ⁽¹⁾ مُنكسر الأرجاء ذا ميل
- (7) ونار فارس لم توقد وما خمدت
من ألف عام ونهر القوم لم يسيل
- (8) ومنطق الذيب بالتصديق معجزة
مع الذراع ونطق العير والجمل
- (9) خرَّت لمبعثه الأوثان وانبعثت
ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل

(1) في ن : وانقاض

(10) وفي دعائك بالأشجار حيث أتت
تمشي بأمرك في أغصانها الدُّل⁽¹⁾

(11) وقلتْ عُودي فعادت في منابتها
تلك العروق بإذن الله لم تمل

(12) والسرْحُ بالشام لما جئتها سجدت
شمّ الذوائب من أفنانها الخُضَل

(13) والجِذع حنَّ لأن فارقته أسفا
حنين ثكلى سجتها لوعةُ الثَّكل

(14) ماصبرُ من صار من عين إلى أثر⁽²⁾
وحالُ من حال من حل⁽³⁾ إلى عطل

(15) حيي⁽⁴⁾ فمات سكونا ثم مات لدن
حيي حنينا فأضحى غاية المثل

(16) والشاه لما مسحت الكف منك على
جهد الهزال بأوصال لها قُحل⁽⁵⁾

(1) في ر : الدل بإهمال الدال

(2) في ع : على.

(3) في ع و ن و ج : حال وحيثذ يقرأ عطل بكسر الطاء.

(4) في ع و ر و م : حي.

(5) في ع : نحل وفي م : محل

- (17) سَحَتْ بِدَرَّةٍ شَكْرِي⁽¹⁾ الضَّرْعَ حَافِلَةً
فَرَوْتَ الرِّكْبَ⁽²⁾ بَعْدَ النَّهْلِ بِالْعَلَلِ
- (18) وَآيَةُ الْغَارِ إِذْ وَقِيتَ فِي حَجَبٍ
عَنْ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسِ الْكُفْرِ مُتَّحِلٍ
- (19) وَقَالَ صَاحِبُكَ الصَّدِيقُ كَيْفَ بَنَا
وَنَحْنُ مِنْهُمْ بِمَرَأَى النَّاضِرِ الْعَجَلِ
- (20) فَقُلْتُ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا
وَكُنْتُ فِي حَجَبٍ سَتَرَتْهُ مِنْسَدَلٌ
- (21) حَمَتُ لَدَيْكَ حَمَامُ الْوَحْشِ جَائِعَةً
كَيْدًا لِكُلِّ غَوِي الْقَلْبِ مَخْتَبِلِ
- (22) وَالْعَنْكَبُوتُ أَجَادَتْ حَوْكَ حَلَّتْهَا
فَمَا يُخَالِ بِخِلَالِ النَّسْجِ مِنْ خَلَلِ
- (23) قَالُوا رُجِئَتْ إِلَيْهِ سَرَحَةٌ سَتَرَتْ
وَجْهَ النَّبِيِّ بِأَغْصَانِهَا هُذُلٌ
- (24) وَفِي سُرَاقَةِ آيَاتٍ مَيِّينَةٍ
إِذْ سَاخَتْ الْحَجَرُ فِي وَحْلِ⁽³⁾ بِلَا وَحْلِ
- (25) عَرَجَتْ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ إِلَى
مَقَامِ زُلْفَى كَرِيمٍ قُمْتُ فِيهِ عَلَيَّ

(1) في ع، وم : شكوى وفي ر : شكر وشكري الضرع ممتلكته لبناء.

(2) في م : فدرت

(3) في ر : رجل والحجر بكسر الحاء : أنتهى الخيل.

- (26) عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم
تستكمل الليل بين المر والقفل
- (27) دعوت للخلق عام المحل مبتهلا
أفديك بالخلق⁽¹⁾ من داع ومبتهل
- (28) صعدت كفيك إذ كيف الغمام فما
صوّبت إلا بصوب الواكف الهطّل
- (29) أراق بالأرض تجا صوب ريقه
فحل بالروض نسجا رائق الحُلل
- (30) زُهرٌ من النور حلت روض أرضهم
زهرا من النور ضافي النَّبت مكتهل
- (31) من كل غصن نضير مورك خضر
وكل نور نضيد مونيخ خضيل
- (32) تحيةً أحييت الأحياء من مضر
بعد المضرة تروي السَّيل بالسَّيل⁽²⁾
- (33) دامت على الأرض سباغير مقلعة⁽³⁾
لولا دعاؤك بالاقلاع لم تزل

(1) في خ : للخلق.

(2) في م. ون و ج بالسبل بفتح الباء وهو المطر.

(3) في ر : مقلعة.

- (34) وَيَوْمَ زُورِكِ بِالزُّورَاءِ⁽¹⁾ إِذْ صَدَرُوا
 مِنْ يُمْنٍ كَفَكَ عَنْ أَعْجُوبَةٍ مِثْلِ
 (35) وَالْمَاءِ يَنْبَعُ جُوداً مِنْ أَنْامِلِهَا
 وَسَطِ الْإِنَاءِ بِلَا نَهْرٍ⁽²⁾ وَلَا وَشَلٍ
 (36) حَتَّى تَوْضَأَ مِنْهُ الْقَوْمُ وَاغْتَرَفُوا
 وَهُمْ ثَلَاثَ مِئِينَ جَمْعٍ مُحْتَفِلٍ
 (37) أَشْبَعَتْ بِالصَّاعِ أَلْفَا مَرْمَلِينَ كَمَا
 رَوَيْتُ أَلْفَا وَنِصْفَ الْأَلْفِ مِنْ سَمَلٍ⁽³⁾
 (38) وَعَادَ مَاشِيعَ الْأَلْفِ الْجِيَاعُ بِهِ
 كَمَا بَدَا فِيهِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَحُلْ
 (39) أَعْجَزَتْ بِالْوَحْيِ أَرْبَابُ الْبَلَاغَةِ فِي
 عَصْرِ الْبَيَانِ فَضَّلْتُ أَوْجُهُ الْحَيْلِ
 (40) سَأَلْتُهُمْ سُورَةَ فِي مِثْلِ حِكْمَتِهِ
 فَتَلَّهُمْ عَنْهُ حَيْنُ الْعِجْزِ حِينَ تُثْلِي
 (41) فَرَامَ رَجَسٍ كَذُوبٍ أَنْ يِعَارِضَهُ
 سَخْفَ إِفْكَ فَلَمْ⁽⁴⁾ يَحْسَنْ وَلَمْ يَطْلُ

(1) الزوراء المذكورة هنا موضع بالمدينة وهو في حديث أنس عن هذه المعجزة كما في الصحيحين رأيت رسول الله، وهو بالزوراء وحانت العصر : الحديث.

(2) في ر : ولانهر.

(3) السمل بقية الماء في الإناء

(4) في ع : لم وهو كذلك لايتزن، وفي م، و ن : يعي مكان بسخف افك.

- (42) مَبِجَ بَرَكِيكَ الْآفَكَ مَلْتَبَسَ
 مَلْجَلَجَ بَزْرِي⁽¹⁾ الزُّورَ وَالْخَطْلَ
 (43) يَمِجَ أَوَّلَ حَرْفِ سَمْعٍ سَامِعِهِ
 وَيَعْتَرِبُهُ كَلَالُ⁽²⁾ الْعَجْزِ وَالْمَلَلِ
 (44) كَأَنَّهُ مَنْطِقُ الْوَرَهَاءِ شَذَّ بِهِ
 لَبَسَ مِنَ الْخَبْلِ⁽³⁾ أَوْ مَسَ مِنَ الْخَبْلِ
 (45) أَمَرْتُ الْبَيْرَ بَلْ غَارَتْ لِحْبَتِهِ⁽⁴⁾
 فِيهَا وَأَعْمَى بَصِيرَ الْعَيْنِ بِالْثَفْلِ
 (46) وَأَيْسَ الضَّرْعَ مِنْهُ شَوْمَ رَاحَتِهِ
 مِنْ بَعْدِ إِرسَالِ رِسَالٍ مِنْهُ مِنْهَلٍ
 (47) بَرِئْتُ مِنْ دِينِ قَوْمٍ لَأَقْوَامٍ لَهُمْ⁽⁵⁾
 عَقُولُهُمْ مِنْ وَثَاقِ الْغِيِّ فِي عُقْلٍ
 (48) يَسْتَخْبِرُونَ خَفِيَّ الْغَيْبِ مِنْ حَجَرٍ
 صَلَدَ، وَيَرْجُونَ غَوْثَ النَّصْرِ مِنْ هَبْلٍ
 (49) نَالُوا أَذَى مِنْكَ لَوْلَا حِلْمُ خَالِقِهِمْ
 وَحِجَّةُ اللَّهِ بِالْإِعْذَارِ لَمْ تُنَلِّ

(1) فِي ر : بَرْدِي

(2) فِي م : كَلَامُ الْعَجْزِ

(3) فِي خ : الْحَبْلُ بِالْمُهْمَلَةِ وَالْخَبْلُ بِالسُّكُونِ الْفَسَادُ وَبِالْفَتْحِ الْجَنُّ

(4) فِي ن : وَاعْغُورَتْ لِحْبَتُهُ.

(5) فِي طَرَةِ خ : إِشَارَةٌ إِلَى نَسْخَةِ أُخْرَى فِيهَا : لَهُ. وَهِيَ أَنْسَبُ وَفِي ج بَرِئْتُ مَكَانَ
 بَرِئْتُ. وَفِي ن غَلَلَ مَكَانَ عَقَلَ

- (50) واستضعفوا أهل دين الله فاصطبروا
لكل معضل خطب فادح . جلل
- (51) لاقى بلالٌ بلاءً من أُمّية قد
أحله الصبر فيه أكرمَ النزل⁽¹⁾
- (52) إذ أجهدوه بضنك الأسر وهو على
شدائد الإزل⁽²⁾، ثبت الأزر ولم يزل
- (53) ألقوه بطحاً يرمضاء البطاح وقد
عَالوا عليه صخوراً جمّة الثقل
- (54) يوحد الله⁽³⁾، إخلاصاً وقد ظهرت
بظْهره كُندوبُ الطل في الطلل
- (55) إن قَدْ ظَهَرَ وَلِيَّ الله من دُبُرٍ
قد قَدْ قلبُ عدو الله⁽⁴⁾ من قُبُلٍ
- (56) نَفِرت في نفر لم ترض أنفسهم
إذ نافروا الرّجس إلا القُدس من نَفَلٍ
- (57) بأنفس بُدّلت في الخُلد إذ بدّلت
عن صِديق بذل يبدر أكرم البَدَل

(1) في م : أكرم النول.

(2) الداهية والأمر الشديد.

(3) في م، و ن : فوحد الله.

(4) يريد به أُمّية بن خلف الذي كان يعذب بلالاً بمكة فقتله بلال في بدر.

- (58) مِنْ كُلِّ مُهْتَصِرٍ لِلَّهِ مُنْتَصِرٌ
 بِالْبَيْضِ مَخْتَصِرٌ بِالسُّمْرِ مَعْتَقِلٌ
- (59) يَمْشِي إِلَى الْمَوْتِ⁽¹⁾ عَالِي الْكُعْبِ مَعْتَقِلًا
 أَظْمَى الْكُعُوبِ كَمْشِي الْكَاعِبِ الْفُضْلُ
- (60) قَدْ قَاتَلُوا دُونَكَ الْأَقْيَالَ عَنْ جِلْدٍ
 وَجَالَدُوا بِجِلَادِ الْبَيْضِ وَالْجَدَلِ
- (61) وَصَلَّتْهُمْ وَقَطَعْتَ الْأَقْرَبِينَ مَعًا
 فِي اللَّهِ لَوْلَاهُ لَمْ تَقْطَعْ وَلَمْ تُصِلْ
- (62) وَجَاءَ جَبْرِيلُ فِي جُنْدٍ لَهُ عُدَدٌ
 لَمْ تَبْتَذِلْهَا أَكْفُ الْخَلْقِ بِالْعَمَلِ
- (63) بَيْضٌ مِنَ الْعَوْنِ لَمْ تُسْتَلَّ مِنْ غُمْدٍ
 خَيْلٌ مِنَ الْكَوْنِ لَمْ تَسْتَنَّ فِي طِيلِ
- (64) أَحَبُّ بِخَيْلٍ مِنَ التَّكْوِينِ قَدْ جُنِبَتْ⁽²⁾
 لْجَانِبٍ عَنِ جَنَابِ الْحَقِّ مُعْتَزِلٌ
- (65) أَعْمِيَتْ جَيْشًا بِكَفٍ مِنْ حَصَى فَجَثُوا
 وَعَقَلُوا عَنْ حَرَكَ النَّقْلِ بِالنَّقْلِ⁽³⁾

(1) في طرة خ : إشارة إلى نسخة فيها : إلى الحرب.

(2) في ر : حيت.

(3) النقل محركا صغار الحجارة.

- (66) ودعوة بفناء البيت صادقة
غذا أُمِيَّةٌ منها شرٌّ منخِذِلٌ⁽⁴⁾
- (67) غَادَرَتْ جَهْلٌ أَبِي جَهْلٌ بِمَجْهَلَةٍ
وشاب شِيَةً قبل الوقت⁽⁵⁾ من وَجَلْ
- (68) وَعَتَبَةُ الشرِّ لم يُعْتَبْ فَتَعَطِفْهُ
منك العواطفُ قبل الحَيْنِ في مَهْلٍ
- (69) وغُتْبَةُ الغمرِ عقباه لَشَقْوَتِهِ
أَنْ ظَلَّ⁽⁶⁾ من غمرات الخِزْيِ في ظَلَلٍ
- (70) وَكُلُّ أَشْوَسَ عَاتِي القلبِ مُنْقَلِبٍ
جَعَلْتَهُ بِقَلْبِ الْبِئْسِ كَالْجُعَلِ
- (71) وَجَاثَمَ بِمَنَارِ النَّقْعِ مُشْتَغِلٍ
بِجَا حِمٍّ مِنْ أَوَارِ الثُّكُلِ مُشْتَعِلٍ
- (72) عَقَدَتْ بِالْخِزْيِ فِي عَطْفِي مَقْلُدَهُ
طَوَّقَ الْحَمَامَةَ بَاقٍ غَيْرَ مُنْتَقِلِ
- (73) أَمْسَى تَحْلِيلِ صَغَارٍ بَعْدَ تَخْوَتِهِ
بِالْأَمْسِ فِي خُيَلَاءِ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ

(4) في غ : منخزل، والدعوة المشار إليها هي ماجاء في الصحيح من قوله ﷺ :
اللهم عليك المألأ من قريش وسمى نفرا منهم : أبا جهل وأمية ابن خلف وعتبة
بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فصرعوا كلهم في بدر.

(5) في ع : المتوت وفي ن : الفوت

(6) في ن : قد ظل والمراد بعقبة : ابن أبي مُعَيْط وهو الذي القى سلا الجزور على
النبي عند سجوده فدعا عليه وعلى رفاقه.

- (74) دامِ يُدِيمِ زفيراً في جَوانحه
جُنْحٌ من الشك لم يَجْنَح ولم يَمَل
- (75) يقاد في القَدِّ خَنْقاً مشرباً خَنْقاً
يمشي به الذُّعْر مشي الشارب الثمل
- (76) أوصالُه من صليل الغُل في عِلل
وقلبُه من غليل الغِل في غُلل
- (77) يظُلُّ يحجَل ساجي الطرف تخافضه
لِمَسْكَةِ الحِجَل⁽¹⁾ لامن مُسْكَةِ الحجل
- (78) أرخت بالسيف ظهر الأرض من نَفَر
أزحت بالصدق منهم كاذب العِلل
- (79) تركت بالكفر صدعاً غير ملئتم
وآب عنك بقرح غير مُندِمِل
- (80) وأفلت السيف منهم كل ذي أسف
على الحمام حماه آجل الأجل
- (81) قد اعتقته عِتاق الخيل وهو يرى
به إلى رِقِّ موتٍ رقة الغزل
- (82) فكم بيكة من بالك وباكية
بفيض سَجَل من الآماق مُنْسَجَل
- (83) وكاسف البال بالي الصبر جُدت له
بوابل من وبال الخزي مُتَّصِل

(1) في م : من مسكة.

- (84) فؤاده من سَعِير الغِيظ في غُلل
وعَيْنُهُ من غَزِير الدَمع في غُلل
- (85) قد أَسْعَرَتْ مِنْهُ صَدْرًا غَيْرَ مُصْطَبِرٍ
وَحَمَلَتْ مِنْهُ صَبْرًا غَيْرَ مُحْتَمَلٍ
- (86) وَيَوْمَ مَكَّةَ إِذْ أَشْرَفْتُ فِي أُمِّ
يَضِيقُ مِنْهَا فِجَاجُ الْوَعْثِ وَالسَّهْلِ
- (87) خَوَافِقُ ضَاقَ ذَرْعُ الْخَافِقِينَ بِهَا
فِي قَاتَمٍ مِنْ عَجَاجِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ
- (88) وَجَحْفَلِ قَذْفِ الْأَرْجَاءِ ذِي⁽¹⁾ لُجْبٍ
عَرْمَرَمٍ كُزْهَاءِ السَّيْلِ مَنْجَسِلِ⁽²⁾
- (89) وَأَنْتَ صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ تَقْدُمُهُمْ
فِي بَهْوٍ إِشْرَاقِ نُورٍ مِنْكَ مَكْتَمِلِ
- (90) يُنِيرُ فَوْقَ أَغْرَّ الْوَجْهِ مُتَجَبِّ⁽³⁾
مَتَوَّجٍ بِعَزِيزِ النَّصْرِ مُقْتَبِلِ
- (91) يَسْمُو⁽⁴⁾ أَمَامَ جُنُودِ اللَّهِ مُرْتَدِيًا
ثَوْبَ الْوَقَارِ لِأَمْرِ اللَّهِ مُمَثِّلِ

(1) في ر : في لُجْبٍ.

(2) في ع، و م : اللَّيْلُ وَفِي الْعَبْدِيَّةِ : النَّسِيلُ مَنْسَحَلٌ، وَهُوَ تَصْخِيفٌ.

(3) في ر و م : مُتَجَبِّ.

(4) في م، و ن : تَسْمُو.

- (92) نَحْشَعَتْ تَحْتَ بَهَاءِ⁽⁵⁾ الْغِزِّ حِينَ سَمَتْ
بِكَ الْمَهَابَةِ فِعْلُ الْخَاصِعِ الْوَجَلُ
- (93) وَقَدْ تَبَاشَرَ أَمْلَاكُ السَّمَاءِ بِمَا
مَلَكَتْ إِذْ نَلَتْ مِنْهُ غَايَةَ الْأَمَلِ
- (94) وَالْأَرْضُ تَرْجُفُ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ فَرْقٍ
وَالْجَوُّ يُزْهَرُ إِشْرَاقاً مِنَ الْجَدَلِ
- (95) وَالْخَيْلُ تَحْتَالُ زَهْواً فِي أَعْنَتِهَا
وَالْعَيْسُ تَنْثَالُ رَهْواً فِي ثُنَى الْجُدَلِ
- (96) لَوْلَا الَّذِي نَحَطَّتْ الْأَقْلَامُ مِنْ قَدَرِ
وَسَابِقِ مَنْ قَضَاءِ غَيْرِ ذِي حَوْلِ
- (97) أَهْلُ تَهْلَانُ بِالتَّهْلِيلِ مِنْ طَرْبِ
وَذَابِ يَذْبَلُ تَهْلِيلًا مِنَ الذُّبُلِ
- (98) الْمَلِكُ - اللَّهُ هَذَا عَزْ مِنْ عُقْدَتِ
لَهُ النُّبُوَّةُ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي الْأَزَلِ
- (99) شَعَبَتْ صَدْعَ قَرِيْشٍ بَعْدَمَا قَذَفَتْ
بِهِمْ شَعُوبُ شُعَابِ السَّهْلِ وَالْقَلَلِ
- (100) قَالُوا مُحَمَّدٌ قَدْ زَارَتْ كَتَائِبُهُ
كَالْأَسَدِ تَزَارُ فِي أُنْيَابِهَا الْعُصُلُ
- (101) فَوَيْلٌ مَكَّةَ مِنْ آثَارِ وَطْأَتِهِ
وَوَيْلٌ أُمَّ قُرَيْشٍ مِنْ جَوَى الْهَبْلِ

(5) فِي ن : تَحْتَ لَوَاءِ الْعِزِّ.

- (102) فجُدت عفوا بفضل العفو منك ولم
تُلمِم ولا بأليم اللوم والعَذل
- (103) أضربت بالصفح صفحاً عن طوائهم
طولاً أطل مَقِيل النوم⁽¹⁾ في المُقل
- (104) رجمت واشيج أرحام أثيح لها
تحت الوشيج نسيجُ الرُوع والوجل⁽²⁾
- (105) عاذوا بظل كريم العفوذي لطف
مُبَارَك الوجّه بالتوفيق مشتمل
- (106) أزكى الخليفة أخلاقاً وأطهرها
وأكرم الناس صفحا عن ذوي الزلل
- (107) زان الخشوع وقار منه في خفر
أرق من خفر العذراء في الكِلل
- (108) وطُفت بالبيت محبوراً وطاف به
مَن كان عنه قُبيل الفتح في شغل
- (109) والكفر في ظلمات الخزي مرتكس
ثاو بمنزلة البهوت من زحل
- (110) حَجَزت بالأمن أقطار الحجاز معا
وملت بالخوف عن خيف وعن ملل

(1) في ن : القوم

(2) في ع : والوجل.

- (111) وحل آمنٌ ويؤمن منك في يمن
لما أجابت إلى الايمان عن عجل
- (112) وأصبح الدين قد حُفَّت جوانبه
بِعِزَّةِ النصر واستولى على الملل
- (113) قد طاع مُنحرفٌ منهم لمُعترف
وانقاد مُنعِدٌ منهم لمُعْتَدِل
- (114) أَحَبُّ بِخُلةِ أهل الحق في الخُلل⁽¹⁾
وعزُّ دولته الغراء في الدُول
- (115) أمَّ اليمامة يومٌ منه مصطلم
وحلٌ بالشام شوُّمٌ غير مرتحل
- (116) تعرقت منه أعراقُ العراق ولم
يترك من الترك عظمٌ غير منتحل⁽²⁾
- (117) لم يبق للفرس ليثٌ غير مفترسٍ
ولا من الحبش جيشٌ غيرٌ مُنجفل
- (118) ولا من الصَّين صونٌ غير مُبتذل
ولا من الروم مرمى غير منتضل
- (119) ولا من التُّوب جذم⁽³⁾ غير مُنجدِم⁽⁴⁾
ولا من الزَّنج جذلٌ غير مُنجدِل

(1) في ر، و م : خلل.

(2) في ر، منشل

(3) في ر : جزم وهو تصحيف.

(4) في ر : منجزم

- (120) وَنِيلَ بِالسَّيْفِ سَيْفُ النَّيْلِ وَاتَّصَلَتْ
دَعْوَى الْجُنُودِ فَكُلُّ بِالْجِلَادِ صَلَّى
- (121) وَسُئِلَ بِالْغَرْبِ غَرْبُ السَّيْفِ إِذْ شَرَقَتْ
بِالشَّرْقِ قَبْلَ صُدُورِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
- (122) وَعَادَ كُلُّ عَدُوٍّ عِزَّ جَانِبِهِ
قَدْ عَاذَ مِنْكَ بِبَذْلِ غَيْرِ مُبْتَذَلٍ⁽¹⁾
- (123) بِذِمَّةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ مِثْلُ
أَوْ مِنْ شِبَاهِ النَّصْلِ بِالْأَمْوَالِ مُتَّصِلِ
- (124) يَا صَفْوَةَ الْخَلْقِ قَدْ أَصْفَيْتَ فِيكَ صَفَا
صَفْوِ الْوُدَادِ بِلَا شَوْبٍ وَلَا دَخَلِ
- (125) أَلَسْتَ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
مِنَ الْبَرِيَّةِ فَوْقَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
- (126) وَأَزْلَفَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً
إِذْ قِيلَ فِي مَشْهَدِ الْأَشْهَادِ وَالرُّسُلِ
- (127) قُمْ يَا مُحَمَّدُ فَاشْفَعْ فِي الْعِبَادِ وَقُلْ
تُسْمَعُ وَسَلُّ تُعْطَى عَائِداً وَسَلُّ
- (128) وَالْكُوْثَرُ الْحَوْضُ يَرْوِي النَّاسَ مِنْ ظَمَأٍ
بَرْحٍ وَيُنْقَعُ مِنْهُ لَافِحُ الْغُلْلِ
- (129) أَصْفَى مِنَ الثَّلَجِ إِشْرَاقاً مَذَاقُهُ
أَحْلَى مِنَ اللَّبَنِ الْمَضْرُوبِ بِالْعَسَلِ

(1) في ر : يكل منه مبتذل ولا يظهر لها معنى.

- 130) نَحَلْتِكَ الْوَدَّ عَلَيَّ إِذْ نَحَلْتَكِهِ
أَحْبَى بِحَبِّكَ مِنْهُ⁽¹⁾ أَفْضَلَ النُّحْلِ
- 131) فَمَا لَجِلْدِي بِنُضْجِ النَّارِ مِنْ جِلْدِ
وَلَا لِقَلْبِي بِهَوْلِ الْخَشَرِ مِنْ قَبْلِ
- 132) يَا خَالِقَ الْخَلْقِ لَا تُخْلِقْ بَمَا اجْتَرَمْتُ
يَدَايَ وَجْهَيَّ مِنْ حُوبٍ وَمِنْ زَلَلِ
- 133) وَصَنَحْ وَصَلَّ وَوَاصِلُ كُلِّ صَالِحَةٍ
عَلَى صَفِيكَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْأَصْلِ

(1) فِي ج : مِنْكَ.

تائية أبي اسحاق اللبيري

هذه القصيدة من أروع مآلاته العرب في شعر الوصايا والحكم، وقل أن تشابهها قصيدة في هذا الباب، من حيث متانة البناء وعمق النظرة وقوة التأثير، إلا قصيدة أبي الفتح البُستي : (زيادة المرء في دنياه نقصان)، ولكن نونية أبي الفتح هذه شهيرة ومتداولة، وتجري أبياتها على الألسنة، وقد تضمنتها الدواوين الأدبية، فقلما يخلو كتاب للمنتخبات الشعرية منها. أما تائية صاحبنا اللبيري فهي مهجورة منسية، لاتكاد تُعرف، أو يلتفت إليها أحد من الباحثين وأصحاب المجموعات الأدبية والشعرية.

وهي تمتاز بالنفس الطويل، والنظرة المستقصية، والتناول المستوعب، فتقلّب المعنى على جميع وجوهه وتعمق فيه وتستبطّنه، ولاترك شيئاً يخطر على البال مما يتعلق به، ألا ألمعت إليه واستعرضته في وضوح تام وبيان لا مزيد عليه، حتى إن أغراضها انحصرت في مدح العلم وتفضيله على المال، والتزهيد في الدنيا ليس غير، وهي مع ذلك تنيف على عشرة ومئة بيت، والمُدْهَش من أمرها هو هذه السلاسة التي جعلتها في بلاغتها وحسن سبكها كأنها قطعة نثرية،

ونموذج إنشائي لأحد الكتاب البالغاء، لاقصيدة شعرية مرتبطة بوزن وقافية، وماذلك إلا لقوة عارضة صاحبها، ومقدرته البيانية، ونظمه بالسليقة لابلالتكلف.

ويرجع عهدي بهذه القصيدة إلى أيام الطلب، حين كان الوالد — رحمه الله — يورد بعض الأبيات منها في مجلسه، ولاسيما البيت الذي يقول في آخره حاضاً على العمل بالعلم : عَلِمْتُ فَهَلْ عَمِلْتُ؟ وهذا البيت الغد المؤثر :

إِذَا أَلَقَاكَ فَهَمُّكَ فِي مَهَاوٍ
فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فهِمْتَا

ثم بعد ذلك اطلعتُ عليها أو على مأورده الوالد منها في شرحه لنصيحة الهلالي، وهو القسم المتعلق منها بالعلم وطلبه وآدابه والعمل به، وهو قسم طويل يكون وحده قصيدة كاملة، فلم أزل ألهج بأبياته وأجعلها نصب عيني في الدراسة والسلوك، إلى أن وقفت على ثلاث نسخ أخرى منها؛ سأحدث عنها فيما بعد.

وقد كنت أملتُ بها في كتابي أدب الفقهاء، في فصل الأخلاق والآداب منه، كما أملت بقصيدة الواعظ الأندلسي في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك الكتاب، ووعدت برجوعي إليها في موضوع آخر وهو هذا، إذ لايشفي نفسي إلا إذاعة هذه القصائد ونشرها كاملة، وعدم الاكتفاء منها بالشواهد والأمثلة كما اقتضاه بحث أدب الفقهاء.

أبو إسحاق الألبيري

ترجم لأبي إسحاق القاضي عياض في «المدارك» ترجمة قصيرة قال عنه فيها : إنه من أصحاب أبي عبد الله بن أبي زَمَنِين رحمه الله، وروى عنه كتبه، وكان فقيهاً معظماً في وقته، ولم يذكر له تاريخاً. كما ترجم له الضبي في بغية الملتبس بما لايزيد على سنطرق فقال : إنه فقيه فاضل، زاهد عارف، كثير الشعر في ذم الدنيا مجتهد في ذلك.

والترجمة الوافية التي وقفنا عليها له، هي ترجمة ابن الأبار في كتابه التكملة في القسم الأول المفقود من طبعة قديمة، المنشور في الجزائر بعناية ألفريد بل وابن أبي شَنب ونصّها :

«إبراهيم بن مسعود بن⁽¹⁾ سعيد التَّجِيبِي، الزاهد من أهل غرناطة، يعرف بالإلبيري ويكنى أبا إسحاق. روى عن أبي عبد الله بن أبي زَمَنِين وغيره. وكان من أهل العلم والعمل، شاعراً مُجَوِّداً، وشعره مدوّن، وكلّه في الحكم والمواعظ والأزهاد. ومسلكه سلّك أبو محمد بن العسّال الطليطلي، وكانا فرسَي رهانٍ في ذلك الزمان صلاحاً وعبادة. وقد حدّث أبو إسحاق، وروى عنه ابن أخته، وأبو محمد عبد الواحد بن عيسى، وأبو حفص عمر بن خلف الهمدانيان الإلبيريان وغيرهم».

(1) في الأصل : سعد

ثم ذكر بسنده أبياتا من شعر المترجم وقال : توفي في نحو الستين والأربعمائة.

وذكره ابن سعيد المغربي في كتابه المغرب، وجعله من أهل حصن العقاب، ولذلك لم ينسبه إلى البيرة كما أنه لم يذكره بنسبه التُّجيبِي وإنما قال فيه :

أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود. من المسهب : هو من حصن العقاب وكان قد اشتهر في غرناطة اسمه وشاع عمله، واتسم⁽¹⁾ بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرلة اليهودي، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، فسعى في نفيه إلى البيرة فقال شعره المشهور :

ألا قُلْ لصنْهاجَة أجمعين
بُـلـور الزمان وأسْد العرين
لقد زلَّ سِيـدُكم زلَّةً
أقرَّ بها أعيُنُ الشامتين
تخيَّر كاتبه كافراً
ولو شاء كان من المسلمين
فعزَّ اليهودُ به وانتَحَـروا
وكانوا من العِـثْرة الأرذلين

(1) بالأصل وارتسم، ونظن أن الصواب ما أثبتاه.

فاشتهر هذا الشعر، وثارَت صنهاجَةٌ على اليهودي فقتلوه، وعظُم
قدْرُ أبي إسحاق...»

وبعد ذكر مقطوعتين شعريتين له، إحداهما في محل سكناه،
حصن العقاب قال : وله ديوان ملآن من أسعار زهدية، ولأهل
الأندلس غرام بحفظها.

وهذا الديوان الذي أشار له كُلُّ من ابن الأبار وابن سعيد المغربي
قد نشره المستعرب الأسباني الشهير إميليو غرسية كوميز لأول مرة
عن مخطوطة مكتبة الإسكوريال التي تحمل رقم 404 مع مقدمة
ضافية بالاسبانية، وتعاليق، وكلمة تحليلية لكل قصيدة أو مقطعة
من أشعاره، وفهرس عربي وآخر إسباني مفصل. وذلك في مئة
وست وثمانين صفحة.

ومن ذكر أبا إسحاق صاحبُ الروض المعطار، فقال في تعريفه
بمدينة إلبيرة : «ومنها أبو إسحاق بن مسعود الإلبيري صاحب
القصيدة الزهدية التي أولها :

تَفْتُ فَرَوَاذِكَ الْأَيَّامُ فَتَا

وتنحت جسمك الساعاتُ نَحَا

ثم ذكر أبياتا أخرى من شعره ولكنه لم يذكر لها تاريخاً.
وذكره أيضا أبو الحجاج البلوي في كتابه (ألف با) بعد أن أنشد
أبياتا من قصيدته الثائية في تفضيل العلم على المال فقال :
وهذا الشاعر هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه

الله، والقصيد حسن طويل، كان الأستاذ الفقيه أبو عبد الله بن
سورة شيعي رحمه الله، يحمل طلبته على حفظه لجودته».
وذكره كذلك المقرئ في نفح الطيب في أماكن مختلفة، منشدا
له أشعارا زهدية وغيرها، كلها مما يوجد في ديوانه..

القصيدة ونسخها

تألف هذه القصيدة من مئة وثلاثة عشر بيتاً. وعند ناشر ديوان
أبي إسحاق، الأستاذ غرسة كوميس أنها مئة وإثنا عشر بيتاً فقط،
برغم البيت الذي يكمل ثلاثة عشر والذي قال إنه يوجد بهامش
الصفحة (11) من مخطوطة الديوان، ليتخذ موقعه بين البيتين 29
و 35. وهذا البيت هو :

فراجِعْها ودَعْ عنكَ الهَوَيْنَا
فما بالبُطء تُدرك ماأرَدْنَا

وهذا البيت يوجد في جميع النسخ التي بأيدينا، حيث ذكر
الأستاذ، وإنما استبعده من القصيدة لأن صاحبها يقول في البيت
الأخير منها :

وقد أردفتها ستا حسانا
وكانت قبلَ ذا مئة وستا

فالجميع إذن 112 بيتاً لاغير، لكن الذي عندنا في النسخة
الكاملة التي نصفُها فيما بعد هو مايلي :

وقد أردفتها سبعاً حسناً
وكانت قبل ذا مئة وستا

فهي على ذلك (113).

ونسخ القصيدة التي بيدنا الآن أربع :

1) نسخة شرح الوالد على نصيحة الهلالي⁽¹⁾، وهي تقتصر على 42 بيتاً، وتبتدىء من قوله : (أبا بكر) أي أنها إنما تحوي القسم العلمي منها. وقد قدّمها رحمه الله بقوله : «من قصيدة للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ضمّنها وصية جامعة، ونصيحة لامة لابنه أو ابن أخيه رحم الله الجميع، ونصّها — وبعدما أوردتها قال — : «انتهى المراد منها».

فيلاحظ أولاً أنه سمّى جده سعيداً لاسعداً كما ورد في التكملة، وأنه نسبه إلى قبيلة تُجيب ولم يعرج على نسبته البلدانية، ويظهر أن ذلك هو الصواب، لأنه في الأصل من حصن العقاب كما سبق عن ابن سعيد، فنسبته إلى البيرة طارئة. ويلاحظ ثانياً أنه عيّن أبا بكر الذي وجهت إليه القصيدة بابن الشاعر أو ابن أخيه، وإذا لم يكن في الترجمة التي نقلناها عن ابن الآبار تصحيف، فربما كان أبو بكر هذا ابن أخت الشاعر الذي هو أحد الرواة عنه. على أن تصحيف ابن أخيه بابن أخته ممكن ومحتمل جداً. وفي النسخة التي

(1) طبع هذا الشرح مؤخراً في مصر باسم النسق الغالي والنفس العالي شرح نصيحة أبي العباس الهلالي للشيخ عبد الصمد كنون في 640 صفحة.

تأتي بعد هذه تعينه بابنه على سبيل الجزم والقطع، ويبعد في نظرنا أن يكون ابنه، وهو الذي يأتي في القصيدة أنه يوجه إليه ذلك العتاب المر، وإن كان على سبيل الفرض والتقدير، وليس من المعهود أن يخاطب الولد والده بذلك النقد اللاذع، أما إن كان ابن أخيه أو أخته فقد يمكن أن يتجرأ عليه بذلك، وإن قالوا : العم أحد الأبوين.

وعلى كل حال فقد توقف ناشر الديوان في تعيين أبي بكر من هو، لأن القصيدة في الديوان لم تصدر بشيء في هذا الصدد.

(2) نسخة أطلعني عليها الأخ الأستاذ الحاج أحمد بن شقرون عميد كلية أصول الشريعة بالنيابة، وقد نقلها حسبما ذكر لي من أوراق تالفة، وهي تبتدىء كذلك من قوله (أبا بكر) وتحتوي على (63) بيتاً، فتزيد بواحد وعشرين بيتاً على التي قبلها، وتنقص بخمسين بيتاً عن النص الكامل للقصيدة، وأكثر ذلك من قسم التزهيد وذم المال. وجاء في تقديمها : «قال أبو إسحاق إبراهيم ابن مسعود ينصح ولده أبا بكر ويحثه على العناية بالعلم» فذكر اسمه بدون نسبة أصلاً، كما فعل صاحب المغرب، وعين المنصوح المدعو أبا بكر فجعله ولده من غير تردد.

(3) نسخة كاملة توجد ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان رقم (536) وهو للعلامة أحمد بن عبد الرحمان بن عاشر الحافي السلوي المتوفى سنة 1163 يشتمل على تقايد ورسائل

مهمة، وجلّه بخط يده. فتاريخها إذن يرجع إلى القرن الثاني عشر، ومع أن ناسخها من أهل العلم كما قلنا، فإنه قد تقع له بعض الهفوات، وأعظمها أنه كرر أربعة أبيات منها وردت في وسطها فذكرها مرة أخرى في آخرها ولم يتبه لذلك. على أن إثباتها في وسط القصيدة إنما جاء إلحاقاً بالهامش، فلعله وقف على نسختين منها، إحداها وقعت فيها هذه الأبيات أخيراً وهي التي نقل عنها أول مرة، والثانية وقعت في الوسط فألحقها ولكنه لم ينبه على ذلك. وقد أثبتنا نحن مافي الديوان من إثباتها في وسط القصيدة وحذفناه من الآخر.

(4) نسخة الديوان، وهي نسخة كاملة أيضاً باستثناء الملاحظة السابقة المتعلقة بالبيت الذي استبعده منها الناشر وقوفاً مع ما جاء في آخر بيت من قوله : «وقد أردفتها ستا حساناً» وهي نسخة صحيحة محققة بما عرف عن الأستاذ كوميذ من معرفة دقيقة بالعربية وأدبها، إلا بعض الألفاظ القليلة سننبه عليها في التعليق، وغالبها من اختلاف النسخ أو التطبيع.

ونشير إلى هذه النسخ : الأولى منها بحرف (ل) والثانية بحرف (ش) والثالثة بحرف (ت) والرابعة بحرف (د).

وهذا هو النصّ الكامل للقصيدة، وقد فصلنا بين أقسامها بنبجوم، وهذه الأقسام أكثر ما تدور — كما أسلفنا — على مدح العلم والترغيب فيه، وتفضيله على المال والتزهيد في الدنيا وعتاب النفس :

- (1) تَفْتُ فَوَإِذَاكَ الْيَوْمَ فَتاً
وَتَنَحْتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتاً
- (2) وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دَعَاءَ صَدَقْ
أَلَا يَا صَاحِبَ أَنْتَ أَرِيدُ أَنْتَا
- (3) أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ عَذْرِ
أَبْتَ طَلَّاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَتَا
- (4) تَنَامُ الدَّهْرَ وَيُحَكُّ فِي غَطِيطِ
بِهَا حَتَّى إِذَا مَتَّ انْتَبَهَتْهَا
- (5) فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى
مَتَى لَا تَرْغَبُوي عَنْهَا وَحَتَّى
- (6) أَبَا بَكْرٍ دَعْوُوكَ لَوْ أَجَبْتَا
إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا⁽¹⁾
- (7) إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً
مُطَاعاً إِنْ أَمَرْتَ وَإِنْ نَهَيْتَا
- (8) وَيَجْلُو⁽²⁾ مَابَعِينِكَ مِنْ عَشَاهَا
وَيَهْدِيكَ⁽²⁾ السَّبِيلَ إِذْ ضَلَلْتَا
- (9) وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً
وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذْ اعْتَزَيْتَا⁽³⁾

(1) في ت : إلى ما فيه رشذك إن قبلتا.

(2) في د : وتجلو وتهديك.

(3) في د : اغتربتا.

- (10) ينالك نفعه مادمت حيا
ويبقى ذخره لك إن ذهبتا⁽¹⁾
- (11) هو العَضْبُ المُهَنْدُ ليس ينبو
تُصِيبُ- به المَقَاتِلُ⁽²⁾ إن ضربتا
- (12) وكنزٌ لا تخاف⁽³⁾ عليه لصاً
خفيفُ الجمل يُوجد حيث كنتا
- (13) يزيدُ بكثرة الإنفاق منه
وينقصُ إن به كفاً شَدَدُ تا
- (14) فلو قد دُقت من حلواه طعاماً
لآثرت التعلُّمَ واجتهدتا
- (15) ولم يشغلك عنه هوى مطاعٍ
ولا دُنْيَا بِزُخْرِهَا فُتِنَا⁽⁴⁾
- (16) ولا أهلك عنه أنيقُ روضٍ
ولا خِذْرٌ⁽⁵⁾ بربرٍ به كِلَفْتَا
- (17) فقوَتْ الروحُ أرواحُ المعاني
ولست بأن طعمت وأن شَرَبْتَا⁽⁶⁾

(1) هذا البيت ساقط في ش.

(2) هذا ما في ل وفي بقية النسخ : مقاتل من ضربتا. وقد آثرنا مظهر لنا أنه أشعر.

(3) في ت : لا يخاف .. لصاً. وهو تصحيف.

(4) فبت : افتتنا.

(5) في ل و ش خذن.

(6) في ل : ولا شربتا. وفي ت أو أن شربتا.

- (18) فَوَاطِبُهُ وَخِذْ بِالْجِدِّ فِيهِ
فَإِنْ أَعْطَا اللَّهَ قَدْ انْتَفَعْنَا
- (19) وَإِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طَوِيلٌ بَاعِ
وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْنَا
- (20) فَلَا تَأْمَنْ سَوَالَ اللَّهَ عَنْهُ
بِتَوْبِيخٍ : عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْنَا ؟
- (21) فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا
وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْنَا
- (22) وَأَحْسَنُ ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ⁽¹⁾ لَا أَنْ
تُرَى ثَوْبَ الْإِسَاءَةِ قَدْ لُبَسْنَا
- (23) إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا
فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْنَا
- (24) وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ
فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهَمْنَا
- (25) سَتَجْنِي مِنْ ثَمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا
وَتَصْغُرُ فِي الْعَيُونِ وَإِنْ كَبُرْنَا⁽²⁾
- (26) وَتُفْقِدَ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ
وَتُوجَدَ إِنْ عَلِمْتَ وَقَدْ فُقِدْنَا

(1) هذا ما في ل. وفي بقية النسخ : أخذنا.

(2) في ش : وعود نفسك الإحسان. وفي د : وضافي ثوبك الإحسان.

(3) في ت ود : إذ كبرنا.

- (27) وتذكرُ قولتي لك بعد حين
وتغبطها إذا عنها شغلتنا
- (28) وسوف تَعْضُّ من ندمٍ عليها
وما تغني الندامةُ إن ندمتا
- (29) إذا أبصرتَ صَحْبَكَ في سماء
قد ارتفعُوا عليك، وقد سفلتا
- (30) فراجعها ودع عنك الهَوِينَا
فما بالبُطء تُدرك ماأردتنا⁽¹⁾
- (31) ولا تحفل بمالكِ واله عنه
فليس المال إلا ما علمتنا
- (32) وليس لجاهلٍ في الناس مَعْنَى
ولو مُلْكُ العِراق له تأتَى
- (33) سينطق عنك علمُك في نديٍّ
ويُكْتَب عنك يوماً إن كُتبتا
- (34) وما يُغنيك تشييدُ المباني
إذا بالجهل نفسك قد هدمتا
- (35) جعلتَ المال فوق العلم جهلاً
لعمرك في القضية ما عدلتا

(1) هذا هو البيت الذي استبعده ناشر الديوان.

- (36) وبينهما بنصّ الوجي بَوْنُ
ستعلمه إذا (طه) قرأتا⁽²⁾
- (37) ولئن رفع الغنيّ لواء مال
لأنت لواء علمك قد رفعتا
- (38) وإن جلس الغنيّ على الحشايا
لأنت على الكواكب قد جلستا
- (39) وإن ركب الجياد مُسُومَاتٍ
لأنت مناهج التقوى ركبنا
- (40) ومهما افتضّ أبكار الغواني
فكم بكرٍ من الحكم⁽³⁾ افتضضنا
- (41) وليس يضرك الاقتار شيئاً
إذا ما أنت ربك قد عرفنا⁽⁴⁾
- (42) فماذا عنده لك⁽⁵⁾ من جميل
إذا بفناء طاعته أنختنا
- (43) فقابل بالقبول صحيح نصحي
فإن أعرضت عنه فقد خسرتنا

(2) في سورة طه آيات في فضل العلم والتهديد في الدنيا كآية (وقل رب زدني علماً) وآية (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم).

(3) في ش : من المعنى

(4) في ت : قد أطلعنا

(5) في ت : به ربحتنا.

(44) وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا
وَتَاجَرْتَ إِلَيْهِ فَقَدْ رَجَحْتَ⁽¹⁾

(45) فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ
تَسْوُوكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَنَا
(46) وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرتَ فِيهَا

كَفَيْتُكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَ⁽²⁾
(47) سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ
فَكَيْفَ تَحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَ

(48) وَتَطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ
سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَ

(49) وَتَعْرِى أَنْ لَبِستَ بِهَا⁽³⁾ ثِيَابًا
وَتُكْسَى أَنْ مَلَأْتَهَا خَلْقًا

(50) وَتَشْهَدُ كُلُّ يَوْمٍ دَفْنٍ خَلٍّ
كَأَنَّكَ لِأَثْرَادٍ بِمَا شَهِدْتَ⁽⁴⁾

(51) وَلَمْ تُخْلَقْ لَتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ
لِتَعْبُرْهَا، فَجِدْ لِمَا خُلِقْتَ

(1) فِي د : أَنْ حَكَمْتَ.

(2) فِي د : أَنْ حَكَمْتَ.

(3) فِي د : لَهَا.

(4) فِي ت : لِمَا شَهِدْتَ.

- (52) وان هُدِمْتَ فزُدْهَا أَنْتَ هَدْمًا
وشَيْدًا⁽¹⁾ أَمَرَ دِينَكَ مَا اسْتَطَعْتَ
- (53) وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَافَاتٍ فِيهَا
إِذَا مَا أَنْتَ فِي إِخْرَاكِ قُزْتَا
- (54) فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نَلْتَ مِنْهَا⁽²⁾
مَنْ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرْمَتَا
- (55) وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السَّفَهَاءِ لَهْوًا⁽³⁾
فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحَكْتَ
- (56) وَكَيْفَ لَكَ السَّرُورُ وَأَنْتَ فَاِنٍ
وَلَا تَدْرِي أَتُفْدِي أَمْ غَلَقْتَ⁽⁴⁾
- (57) وَسَلِّ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا
وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَ
- (58) وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا
بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بِنِ مَتَّى⁽⁵⁾
- (59) وَلَا زِمَ بِأَبِيهِ قَرْعًا عَسَاءَ
سَيَفْتَحُ بِأَبِيهِ لَكَ إِنْ قَرَعْتَ

(1) هذا ما في ش. وفي ت ود : وحصن.

(2) في ش و ت : منهم.

(3) في ت : جهلاً.

(4) غلقتا : أي لم تُفد. وهذا البيت ساقط في : ش و ت.

(5) هو يونس النبي عليه السلام وماناداه به قوله : «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كنت من الظالمين» كما في القرآن الكريم سورة الأنبياء آية : 76

- (60) وأكثر ذكره في الأرض دأباً
لِتُذَكَّرَ في السماء إذا ذكرتا
- (61) ولا تُقَلِّ الصُّبَا فيه مجالاً
وفُكِّرَ كم صغيرٍ قد دفتا
- (62) وقُلْ لي يا نصيحُ لَأَنْتَ أُولَى
بِنَصْحِكَ لو بعقلك قد نظرتا⁽¹⁾
- (63) تُقَطِّعْنِي⁽²⁾ على التفریط لوماً
وبالتفریط دهرَكَ قد قطعتا
- (64) وفي صِغْرِي تُخَوِّفْنِي المنايا
وما تجري ببالك حين شِخْتَا
- (65) وَكُنْتَ مَعَ الصُّبَا أَهْدَى سبيلاً
فما لك بعد شِيئِكَ قد نَكَسْتَا
- (66) وما أَنَا لم أَخْضُ بِمَجَرِّ الخَطَايا
كما قد خُضْتُه حَتَّى غَرَقْتَا
- (67) ولم أَشْرَبْ حُمِيّاً أَمْ دَفَرٌ⁽³⁾
وَأَنْتَ شَرَبْتَا حَتَّى سَكَرْتَا⁽⁴⁾

(1) سقط هذا البيت وما بعده إلى البيت 94 من : ش.

(2) في ت : فقطعني.

(3) أم دفر : كنية الدنيا. والدفر : التتن.

(4) في ت : شكرتا.

- (68) ولم أحلّل بواذٍ فيه ظلم
وأنت حلّلت فيه وانهمكتا⁽¹⁾
- (69) ولم أنشأ بعصر فيه نقع
وأنت تشأت فيه وما انتفعتا
- (70) وقد صاحبت⁽²⁾ أعلاماً كبارا
ولم أرّك اقتديت بمن صحبتا
- (71) وناداك الكتاب فلم يُجِبْه
ونبّهك⁽³⁾ المَشيب فما انتبهتا
- (72) ليقبُح بالفتى فعلُ التصابي
وأقبُح منه شيخ قد تَفَقَّى
- (73) فأنت أحقُّ بالتنفيذ مني
ولو سكّت المُسيء لما نطقتا
- (74) ونفسك ذم لاتذمّم سواها
ولو سكّت المُسيء لما نطقتا
- (75) فلو بكت الدّما عيناك خوفاً
لذنبك لم أقل لك قد أُمِنّا
- (76) ومَن لك بالأمان وأنت عبدٌ
أمرت فما ائتمرت ولا أطعنا

(1) في د : ونهملتا.

(2) في ت : وكم صاحبت.

(3) في د : ونهيك.

- (77) ثَقَلَتْ مِنْ الذُّنُوبِ وَلَسْتُ تَخْشَى
بِجَهْلِكَ⁽¹⁾ أَنْ تَخْفَ إِذَا وُزِنَتْ
- (78) وَتُشْفِقُ لِلْمَصْرِ⁽²⁾ عَلَى الْمَعَاصِي
وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَارِحَتَا
- (79) رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا
لِعَمْرِكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَّا رَجَعْنَا
- (80) وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ
وَنَاقَشْتَ الْحِسَابَ إِذَنْ هَلَكْنَا⁽³⁾
- (81) وَلَمْ يَظْلَمَكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ
عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْنَا
- (82) وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَضْلِ فَرْدًا
وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى
- (83) لِأَعْظَمَتِ النَّدَامَةُ فِيهِ لَهْفًا
عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْنَا
- (84) تَفَرُّ مِنَ الْهَجَرِ وَتَتَّقِيهِ
فَهَلَّا عَنْ جَهْلِكَ قَدْ فَرَرْنَا
- (85) وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَاهَا عَذَابًا
وَلَوْ كُنَّا الْحَدِيدَ بِهَا لُبْنَا

(1) في د : بيملك.

(2) في د : للمضر.

(3) فيه إشارة إلى الحديث : من نُوقِسَ الْحِسَابَ عَذَّبَ.

- (86) فلا تُكذِبْ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدٌّ
وليس كما حسبْتَ ولا ظننْتَ⁽¹⁾
- (87) أبا بكر كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْبٍ
وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ⁽²⁾ سَتَرْتَنَا
- (88) فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْخَازِي
وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ⁽³⁾ قَدْ صَدَقْنَا
- (89) وَمَهْمَا عِثْنِي فَلِفِرْطِ عِلْمِي
بِبَاطِنِي، كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَنَا
- (90) فَلَا تَرْضَ الْمَعَائِبَ فَهِيَ عَارٌّ
عَظِيمٌ يَوْرَثُ الْإِنْسَانَ مَقْتًا
- (91) وَتَهْوِي بِالْوَجْهِ مِنَ الثُّرَيَّا
وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتًا
- (92) كَمَا الطَّيْعَاتُ تُنْعَلُكَ الدَّرَارِي
وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْنَا
- (93) وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا
فَتَلْقَى⁽⁴⁾ الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ سِرْنَا

(1) في ت : ولا زعمنا.

(2) في ت : وأعظمه.

(3) في ت : تلقك.

(4) في ت : وتلقى.

- (94) وتمشي في مراكبها كريماً
وتجني الحمد مما قد غرستنا
- (95) وأنت الآن لم تُعرف بعيب⁽¹⁾
ولا دُئِست ثوبك مذ نشأتنا
- (96) ولا سابقت⁽²⁾ في ميدان زورٍ
ولا أو ضعت فيه ولا خبتنا
- (97) فإن لم تنأ عنه نُشبت فيه
ومن لك بالخلاص إذا نُشبتنا
- (98) ودُئِست ما تطهر منك حتى
كأنك قبل ذلك ما طهرتنا
- (99) وصيرت أسير ذنبك في وثاقٍ
وكيف لك الفكاكُ وقد اسرتنا
- (100) وخف أبناء جنسك واخش منهم
كما تخشى الضراغم والسبتى⁽³⁾
- (101) وخالطهم وزايلهم حذاراً⁽⁴⁾
وكن كالسامري⁽⁵⁾ إذا لمستنا

(1) في د : بعاب.

(2) في ش : ولا سبقت.

(3) السبتى : النمر.

(4) في ت ود : خدارا. وهو تصحيف.

(5) السامري صاحب عجل بني إسرائيل، عاقبه موسى عليها السلام بنهي الناس =

- (102) وان جهلوا عليك فقلّ سلاماً
لعلّك سوف تسلم إن فعلتاً⁽¹⁾
- (103) ومن لك بالسلامة في زمانٍ
ينال العُصم⁽²⁾ إلا إن عُصمتا
- (104) ولاتلبث بحجّي فيه ضميم⁽³⁾
يُميت القلب إلا إن كُبلتا
- (105) وغرّب فالغريب له نفاق⁽⁴⁾
وشرّق إن يريقك قد شريقا
- (106) فليس الزهد في الدنيا خُمولاً
لأنت بها الأمير إذا زهدتا
- (107) ولو فوق الأمير يكون فيها
سموّ وافتخار⁽⁵⁾ كنت أنتا
- (108) فإن فارقتها وخرجت منها
إلى دار السلام⁽⁶⁾ فقد سلمتا

= عن مقاربتة ومماسّته. فالمراد :اهرب منهم، وهذا البيت والثلاثة بعده ساقطة من : ش.

- (1) في د : ان عقلنا.
- (2) العصم : الجوارح والوعول المتعنة برؤوس الجبال.
- (3) في ت : ظلم.
- (4) نفاق أي رواج وقبول.
- (5) في د : تكون فيها سموّاً وافتخاراً. وهذا البيت ساقط من : ش.
- (6) دار السلام : الجنة، وفي ش : إذا فارقتها. وهي تنتهي عند هذا البيت.

- (109) وإن أكرمتها ونظرت منها
بإجلال فنفسك قد أهتتا
- (110) جمعتُ لك النصائح فامثلها
حياتك فهي فضلٌ مامثلتها
- (111) وطولت⁽¹⁾ العتاب وزدتُ فيه
لأنك في البطالة قد اطلتتا
- (112) فلا تأخذ بتقصيري وسهوي
وخذ بوصيتي لك إن رشدتتا
- (113) وقد أردفتُها سبعا حسناً
وكانت قبلَ ذا مئةً وستاً

(1) في د : وحولت.

نونية أبي الحسن المسفر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي (بن خليل) المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب، وربما كان من آل المسفر الاشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضا في كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الاختيار لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي : «أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال أنشدني أبو الحسن علي المسفر بسبته لنفسه.

يأياها المبتلى بذمي. قد علم الله ماتقول

فالقول ان خف في لساني.. أخافني وزنه الثقل

وحافظ كاتب شهيد... يكتب عني الذي أقول

من حاسب النفس كل حين... لم يتهاون بما يقول

ثم قال بأثر ذلك : «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيما عارفا غامضا في الناس نخمول الذكر، رأيته بسبته، له تصانيف منها منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو

من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضا وتسميه الناس المضمون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة وهي هذه :

قل لآخوان رأوني ميتا
فكـوني ورثـوني حزنا
اتظنون بأنـي ميتكم
لست ذاك الميت والله أنا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عليها فيما بعد.

هذا جملة ماورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر يدعو إلى إطالة التفكير في خدج الشخصية الغامضة التي كاد الإهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الإشارة العابرة من الشيخ محيي الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوية ثقة لا يتطرق إليه الشك الا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبد الجليل أي بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبته ؟. وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه، فإذا قال عن مناج العابدين أنه يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها، فإنه يعرف مايقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب النفخ والتسوية والقصيدة التونية التي نسبت أيضا للغزالي. وليس هذا فقط فإننا نجد في هذه الفذلكة من كلام الشيخ الأكبر جوابا عن تساؤل طالما رددته الباحثون في آثار

الإمام الغزالي وحلا لمشكل يتعلق بنفس فلسفة هذا المفكر العظيم.
ذلك أن كتاب منهاج العابدين لم يذكره ابن السبكي في جملة
مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في طبقات الشافعية، وقد لاحظ ذلك
السيد مرتضى الزبيدي في شرح الأحياء، وأشار إلى مقالة ابن عربي
هذه. وقد يعني ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة
في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه
الصفة. وذلك ما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا ثم عقب
عليه بما يلي :

(قلت قد اشتهر واستفاض نسبة منهاج العابدين للغزالي، وقد كنت
قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونه ليس جاريا على مذهبه في
كتبه، ولا هو مطابق لنفسه، وكنت أبحث كثيرا عن المشائخ الذين
ينقل عنهم فيه حيث يقول : قال شيخنا أبو محمد، قال شيخنا أبو
عمرو، وليس ذلك دأبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لأشك أن
الكتاب له لاشتهار ذلك، وللإشارة فيه إلى أحياء علوم الدين، ولنقله
فيه عن امام الحرمين سماعا، فلما رأيت كلام الشيخ محيي الدين
المتقدم تيقنت أنه ليس له لعدالة الشيخ محيي الدين وسعة علمه
واطلاعه، سيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد فما نفاه عنه مع
علمه بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد
القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه،
فإنه لسان وقته بلاغة وتحريرا.

وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين. ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالامام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تأليفه والله أعلم).

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل مابقى من احتمال لصحة نسبة الكتاب المذكور إلى الامام الغزالي. وهو عند التحليل يرجع إلى العناصر الآتية :

(1) أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جاريا على مذهبه، ولا مطابقا لنفسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلامة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب الأخلاق عند الغزالي : «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب. وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة. ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل مازور باسم الغزالي من التأليف».

(2) الأشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب الأحياء الذي وقعت الإشارة إليه على أنه للمؤلف، فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشايخ لاذكر لهم عند الغزالي.

3) عدالة الشيخ محيي الدين الذي نسب الكتاب لصاحبه الحقيقي مع معرفته بعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أرباب هذا الشأن فلا يخفى عليه ماهو من كلام الغزالي وماهو من كلام غيره.

4) عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين. وقد أشار الزبيدي إلى هذا الوجه فيما المعنى إليه سابقا.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي لم يقتنع به فكتب عليه في (نور البصر) بعد نقله له ما نصه : «قلت ورأيت مكتوبا على نسخة منهاج العابدين منقولا من خط الامام القصار أنه للغزالي وأنه آخر مآلفه، وأنه أنفع كتبه فيما أظن. وماذكره ابن العربي ان صح فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم. وأما منهاج العابدين المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه مؤلف الأحياء. ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ما عند الحاتمي نظر والله أعلم.»

والعجيب من الهلالي إذ يقول : «وماذكره ابن العربي (ان صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته لمن هو له حقيقة ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ما علم من عدالته وثبته وكونه معاصرا لصاحبنا أبي الحسن

المسفر، ويتمسك بما وجد منقولاً من خط الامام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولا يخلو أن يكون ذلك مجارة للاعتقاد الشائع الذي لم يخف على أبي سالم. وأما ما جاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب الأحياء فقد عرفه الجميع وهو ما حفزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر مانسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولا تمثل فيها روحه. فلا شك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خانه تحقيقه.

هذا ما يتعلق بكتاب منهاج العابدين، وأما كتاب النفخ والتسوية المعروف بالمضنون الصغير، فإنه أيضاً لم يذكره ابن السبكي في تعداد مؤلفات الغزالي، وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضنون الكبير عرضاً أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتقد عليه وهذا نصه في ذلك : (وذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون المنسوب إليه معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه، والأمر كما قال، وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدوم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟) فإذا كان ابن عربي إنما نفى عن الغزالي المضنون الصغير، وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لا يتعرض للمضنون الصغير بنفي ولا إثبات وينفي المضنون الكبير قطعاً عن الغزالي.

وربما يقول القارىء أن كلامه ليس نصا في أحد المضمونين فبماذا حملتموه على الكبير ؟ قلنا أن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث والا فالكبير اسمه المضمون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسوية، وأظن أن الناس أطلقوا عليه اسم المضمون الصغير من أجل تشابهه موضوعا في الجملة مع المضمون به على غير أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزبيدي قد فصل الكلام عنهما تفصيلا مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح موجه يقينا للمضمون الكبير. فقد قال في التنبيه على ما عزی لأبي حامد من كتب ليست له : (ومنها كتاب النفخ والتسوية فإنه كذلك موضوع عليه، ومنها المضمون على غير أهله، قال ابن السبكي ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه، وقال معاذ الله أن يكون له إلى آخر ما سبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثره : (وهو عندي، وفي المسامرة — يعني محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي — إنه من تأليف علي بن خليل السبتي، وكذلك صرح صاحب تحفة الإرشاد بأنه موضوع عليه وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتابا في رده وتوفي سنة 750)

وقد عاد الزبيدي فخلط في هذا الكلام بين المضمونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير، وعلى كل فقد أفاد هذا الكلام أن كليهما موضوع على الغزالي وليس من تأليفه. وأن

أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصلاح إلى أبي بكر المالقي الذي ألف كتابا خاصا في رده وقفت على تسميته عند النباهي في المرقبة العليا بكتاب السجوم الواكفة، والظلال الوارفة، في الرد على ماتضمنه المضمون به من اعتقادات الفلاسفة ولنا في سبب عزو كتاب النفخ والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضمون الصغير رأي لا يبعد أن يكون صوابا، وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي، ولذلك يُسمى أيضا كتاب الأجوبة الغزالية في مسائل الأخروية كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه، فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويج ولضمان اقبال الناس عليه، وهكذا جاء في أوله :

سئل الشيخ الامام الأجل الزاهد السيد حجة الاسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه، عن معنى قوله تعالى : «فإذا سوите ونفخت فيه من روحي»، ماالتسوية وما النفخ وما الروح فقال... إلى آخره فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من املاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المسفر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضمون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال مابعد الموت، مع كبر حجم هذا وتعرضه لمسائل لم يتعرض لها كتاب النفخ والتسوية، كل ذلك مما أعطاه اسم المضمون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضمون إلى الغزالي أنه يقول بقدوم العالم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفي الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عرف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه، كما يعلم من كتابه تهافت الفلاسفة وغيره، فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مزيجا لهذه العلة مزيلا لهذه الشبهة حيث أن الكتاب المذكور ليس له، وإنما هو لصاحبنا المسفر كما جاء كلامه المشار إليه جوابا عن سؤال المشتبهين في نسبة كتاب منهاج العابدين للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالفا لطريقته ولا يشبه نفسه.

فإن قيل أن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضمون الصغير، والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضمون الكبير، قلنا أن هذه مسألة أخرى تثير إشكالا جديدا، وهو أن كلا من المضمونين اللذين بيدنا لا يوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح، عدا ما يوهمه كلامه في المضمون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم، وكذلك بعض فقرات من المضمون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جردت منه.

وثم في المضمون الصغير في الفصل المذكور عبارة تزدري بالاشعرية والمعتزلة، وهذا بالنسبة إلى نفي الكتاب عن الغزالي مهم جدا، لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لا يتوكل على أصحابه بهذه الصورة.

وننظر أخيرا في قصيدة صاحبنا التونية التي قال عنها ابن عربي أنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نسبت أيضا إلى الغزالي، وقيل انها وجدت بعد موته تحت وسادته، فأما نسبتها إليه فتستفاد من شرح الأحياء للزبيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الإشارة إليه على الكتب التي عزيت للغزالي مانصه : (ومنها كتاب تحسين الظنون. وله فيه :

لاتظنوا الموت موتا أنه
لحياة وهي غايات النى
أحسنوا الظن برب راحم
تشكروا السعي وتاتوا أمنا
منأرى نفسي إلا أنتم
واعتقادي أنكم أنتم أنا.

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصدددها، فهذا مايدل على نخلها للغزالي. وأما أنها وجدت بعد موته تحت وسادته فإننا رأينا ذلك مكتوبا على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جزم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول أنها تنسب للغزالي كما قال في الكتاين السابقين من تأليفه، فلم يبق شك في أنها للشيخ المسفر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع، وحقها أن تقرن بعينية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كلا منهما تناولت مطلبا مهما

من مطالب الفلسفة وصاغته صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة، ويخلق في سماء العقل فيرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخاذة أو يضعف لحنه الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت وما بعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحررا من قيد السجن وانطلاقا نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ما كانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها، وتنعم أبدا في عالم قدسي يكشف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتعود سيرتها الأولى من الفطرة التي فطر الله عليها الناس، ويتلمح من القصيدة القول بوحدة الوجود، وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره، وفي النص الذي أثبتته الزبيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله رأيته بسبته زيادة جملة لا توجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي : (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثاتهما كانت في هذه المطالب وماشابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنقوان الشباب، في سن الثلاثين فما إليها، لأنه ولد سنة 560 ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها سنة 598 وفي أثناء ذلك كان يقيم باشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبته وفاس على بعض علمائهما.

أما صاحبنا فالغالب أنه كان في نهاية عمره، ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض

شيوخه، فهو وإن لقيه يعد في رتبة مشيخة شيوخه. وبذلك نطن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نأدم نص القصيدة كاملاً على مآققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالخطوط التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي بعض الألفاظ. وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي الثاني، والسادس والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون، بترتيبها الذي اتبعناه لآترجيحها له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد، فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معا بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المسفر نجلة :

- (1) قل لإخوان رأوني ميتا
فبكوني ورثوني حزنا
- (2) أعلى الغائب مني حزئك
أم على الحاضر معكم هاهنا
- (3) أظنون بأني ميتكم
ليس ذاك الميت والله أنا
- (4) أنا في الصور وهذا جسدي
كان لبسي وقميصي زمنا
- (5) أنا كنز وحجائي طلسم
من تراب قد تهباً للنفيا

- (6) أَنَا دُرُّ قَد حَوَانِي صَدَفُ
طِرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى رَهْنَا
- (7) أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي.
كَانَ سِجْنِي فَأَلَفْتُ السِّجْنَ
- (8) أَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَّصَنِي
وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي رُكْنًا
- (9) كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مِيتًا بَيْنَكُمْ
فَحَيَّيْتُ وَخَلَعْتُ الْكِفْنَ
- (10) فَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأُ
وَأَرَى اللَّهَ جَهَارًا غَلْنَا
- (11) عَاكِفٌ فِي اللَّوْحِ أَقْرَأُ وَأَرَى
كُلَّ مَكَانٍ وَيَأْتِي وَدَنَا.
- (12) وَطَعَامِي وَشَرَابِي وَاحِدٌ
هُوَ رِمَزٌ فَافْهَمُوهُ حَسْنَا
- (13) لَيْسَ خَمْرًا سَائِغًا أَوْ عَسَلًا
لَا، وَلَا مَاءً وَلَكِنْ لَبَنًا
- (14) هُوَ مَشْرُوبُ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ
كَانَ يَسْرِي فِطْرَهُ مَعَ فِطْرِنَا
- (15) فَافْهَمُوا السِّرَ فِيهِ نَبَأُ
أَيُّ مَعْنَى تَحْتَ لَفْظِ كَمْنَا !

- (16) فَاهِدِمُوا بَيْتِي وَرُضُّوا قَفْصِي
وَذَرُوا الطَّلْسِمَ بَعْدِي وَثَنَا
- (17) وَقَمِصِي مَزْقُوهُ رِمَمًا
وَدَعُوا الْكُلَّ دَفِينًا يَبْنَانَا
- (18) قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَفْتُكُمْ
لَسْتُ أَرْضَى دَارَكُمْ لِي وَطْنَا
- (19) حَيُّ ذِي الدَّارِ نَوْمٌ مُغْرِقٌ
فَإِذَا مَاتَ أَطَارَ الْوَسْنَا
- (20) لَا تَنْظِنُوا الْمَوْتَ مَوْتًا أَنَّهُ
لَحْيَاةٌ هِيَ غَايَاثُ الْمَنَى
- (21) لَا تَرْغَبُوا هَجْمَةَ الْمَوْتِ فَمَا
هِيَ إِلَّا ثِقْلَةٌ مِنْ هَاهُنَا
- (22) فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ
تُبْصِرُوا الْحَقَّ عَيَانًا بَيْنَنَا
- (23) وَخَذُوا فِي الزَّادِ جَهْدًا لَا تُثْنُوا
لَيْسَ بِالْعَاقِلِ مَنَّا مَنْ وَنَى
- (24) حَسَنُوا الظَّنَّ بِرَبِّ رَاحِمٍ
تَشْكُرُوا السَّعْيَ وَتَأْتُوا أَمْنًا
- (25) مَا أَرَى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ
وَاعْتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنَا

- (26) عنصر الأنفس منّا واحد
وكذا الجسم جميعا عمّنّا
- (27) فمتى ماكان خير فلنّا
ومتى ماكان شر فبنّا
- (28) فارحموني ترحموا أنفسكم
واعلموا أنكم في إثرنّا
- (29) أسأل الله لنفسي رحمة
رحم الله صديقا أمّنّا
- (30) وعليكم من سلامي صيّب
وسلام الله بدأ وثُنّي
- (31) أبَد الدهرِ إلى يوم يرى
بعضنا بعضا لرحب وهنا

محتويات الكتاب

5	المقدمة
9	قصيدة أنجم السياسة
12	من هو صاحبها
26	نسخها واسمها
28	نص قصيدة أنجم السياسة
41	قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة الصديقية
42	صاحب القصيدة
45	السماع
47	نسخ القصيدة
48	نص القصيدة
57	القصيدة الشقراطية في مدح المصطفى
58	القصيدة وصاحبها
59	تقريظ الناس لها واهتمامهم بها
61	نقد العبدري لها
62	نسخ القصيدة التي قابلناها عليها
65	نصها
81	تائية أبي إسحاق الالبيري
83	أبو إسحاق الألبيري
86	القصيدة ونسخها
90	نص القصيدة
105	نونية أبي الحسن المسفر
116	نص القصيدة